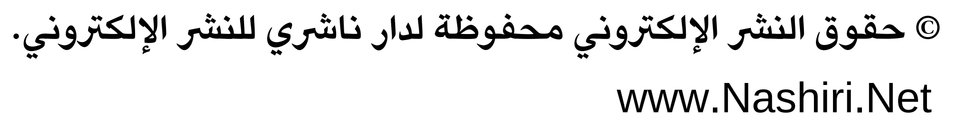


في الأدب الإسلامي

المعنى والوظيفة

د.جاسم الفارس





نشر إلكترونيا في ذي الحجة، 1435/سبتمبر، 2014.

الإخراج الفني: فوزية الألمعي
تصميم الغلاف: إدريس يحيى
التدقيق اللغوي: د. نونج لكسنأ كاما

محتــويات الكتـــاب

محتــويات الكتـــاب 2
المقـدمـة 3
الفصل الأول: مفهـــوم الأدب الإسلامي: المعنـــى والوظيفــــة 6
الفصـــل الثانـــي: أســس إسلامية الأدب، "شعر جيته أنموذجًا" 32
الفصل الثالث: الخطاب الاقتصادي في القصة القرآنية وأبعاده الجمالية 52
مصادر الكتاب 72
السيرة العلمية 75

المقـدمـة

تبقى وظيفة الأدب الجمالية والاجتماعية والأخلاقية والعقائدية ضرورة في إطار النسق الحضاري الإسلامي، لأن الأدب بالرؤية الإسلامية، هو نتاج الرؤية التوحيدية وتجليّاتها الجمالية والأخلاقية والعقائدية والاجتماعية.

إن الأدب الإسلامي، هو ليس نتاج القوى المادية كما في الحضارة الغربية – دون إسقاطها كليًا – فهو ليس نتاج الطبيعة، ولا الفكرة المطلقة، ولا العقد الاجتماعي، ولا قوى الإنتاج، كما يذهب فلاسفة الغرب ومفكروه مثل دارون وهيجل وجان جاك روسو وماركس، إنما هو نتاج التوحيد وتجليّاته المتعددة.

إن النسق الحضاري للأمم هو الذي يحدّد طبيعة وظيفة الأدب، والنسق الحضاري هو مجموعة عناصر مترابطة مع بعضها ومنسجمة، وهي العقيدة/ الفلسفة، والمنهج واللغة والثقافة، سواء على مستوى المادي أم الروحي.

أفرز النسق الحضاري الغربي رؤية مادية، شكلانية، لذّوية، ولم تفلح بعد جهود الكنيسة في عودة العقل الأوربي إلى الدين، ولذلك كان الأدب الغربي بعامة، أدبًا دنيويًا بكل معاني (الدنيوية)، في حين إن الأدب الإسلامي أدب تتوازن فيه الدنيا والآخرة تحت مظلة التوحيد والحرية والجمال. وفي ضوء هذا تحددت وظائفه، وفي مقدمتها، وظيفة تحرير العقل الإسلامي المعاصر من أسر التاريخ الإسلامي، وتحويل القيم الجمالية الإسلامية إلى واقع حي، وتحويل الحب إلى حقيقة وجودية، والتسامح إلى إنجاز حضاري، والخير إلى أرض تعطي للجميع، والإحسان إلى سلوك إبداعي خلّاق، والارتقاء بالإنسان إلى أخلاقيات التوحيد وجمالياته شكلًا ومضمونًا، فهو مكابدة جمالية للحياة بعناصرها المتعددة، الروحية والمادية والنفسية والعقلية.

مرجعية الأدب الإسلامي القرآن الكريم بعناصره المتعددة الجمالية والأخلاقية والعقائدية والتاريخية وما إلى ذلك. إن القرآن الكريم يمدّ العقل بالخيال النافذ في

أعماق الكون والنفس، فيمنح اللغة طاقة على التحرّر من أسْر الآن إلى المستقبل، ومن الذات إلى الجماعة، ومن الجماعة إلى الأمة، ومن الأمة إلى العالم عبر لحظات تواصل جمالي تصنعها اللغة ببلاغتها الخلّاقة.

الأدب الإسلامي قول كوني جمالي خلّاق في خصوصية حضارية، وقول خصوصي خلّاق في كونية رحبة، والرابط بين الكونية والخصوصية هو التوحيد وجمالياته، وتجليّاته الروحية في العشق والحرية والتجاوز.

الأدب الإسلامي تنوير لمعاني القرآن الكلية، ورؤاه الخلّاقة في المودة والرحمة والعدل والتعاون والموت والحياة والتاريخ والإنسان. هو عقل قرآني عناصره الجمال والعشق والحرية، يتجاوز الموت إلى حياة أجمل، فالموت عنده عرس وجودي يرحل عبر الصمت إلى السكينة والجمال والحبّ.

الأدب الإسلامي محفّز جمالي/عقلاني لإدراك الوجود بعناصره المتعددة، فهو ابن الرؤية القرآنية التي جعلت من الجمال طريقًا إلى الله.

وهو أدب العجائب الكونية والغرائب الوجودية، الروحية والمادية، يأخذ الخيال فيه مكانة عليّة في اختراقه عالم الشهادة إلى عالم الغيب، منسجمًا مع سنن الله تعالى في إدراك الوجود والفعل فيه. ليتجلّى، بالتالي، فيه يقين مطلق.

الأدب الإسلامي مهندس خلّاق عناصر عمارته العقل والجمال والحرية والرؤية، على شرط الرؤية القرآنية للوجود، وهي رؤية مفتوحة على المستقبل والإبداع والعشق والحرية والجمال.

على هذا الفهم للأدب الإسلامي قامت فصول الكتاب الثلاثة، يعالج الفصل الأول مفهوم الأدب الإسلامي ليحدّد في ضوء المفهوم وظيفته ومعناه، وجاء الفصل الثاني ليؤسّس رؤية لإسلامية الأدب، في حين تناول الفصل الثالث الأبعاد الجمالية في القصص القرآنية ذات البعد الاقتصادي مركزًا على وحدة الجمال والاقتصاد بالمنظور الإسلامي.

الكتاب وقفة تأملية جمالية في رحاب الأدب الإسلامي، ما يثيره من حوارات أدبية جمالية هو الأهم، فالحوارات تسير في اتجاهين، أفقي وعمودي، وفي كلا الاتجاهين إضافة مهمة للوعي الأدبي الإسلامي

الفصل الأول

مفهـــــوم الأدب الإسلامي

المعنـــى والوظيفـــــة

من القضايا التي باتت تشكل همًّا معرفيًا وحضاريًا في الثقافة الإسلامية تلك هي قضية بناء المفاهيم، ذلك أن المفهوم يعد الفضاء المعرفي والحضاري الذي يحدّد حركة المعرفة والحضارة لأية أمة، ويحدّد سماتها التي تعطي للثقافة والحضارة ملامحها الواضحة، إذ أن المفهوم هو وعاء حضاري تتكثف فيه أبعادها الأساسية، اللغة والعقيدة والمنهج التي تحدّد تصور الإنسان لله والكون والإنسان، والذي في ضوئه تشتغل العلوم والآداب كافة.

لذلك فإن العناية ببناء المفاهيم الإسلامية تعد ضرورة شرعية وحضارية، فهي ضرورة شرعية من حيث إن الانطلاق من القرآن الكريم والسنة المطهرة هو المنهج الذي يحقق إسلامية الحياة بعناصرها كافة. ولما كانت المعرفة هي نتاج التصور لله والعالم والإنسان، وهي في الوقت نفسه نتاج العقيدة، فإن أي معرفة لا تعد إسلامية حين لا تنطلق من القرآن الكريم في إدراك الله والعالم والإنسان، كما أنه لا يمكن أن تعد المعرفة إسلامية حتى تنسجم مع حقائق القرآن والسنة والتصور الإسلامي للوجود.

أما من حيث كون بناء المفاهيم الإسلامية ضرورة حضارية، فلأن المفاهيم هي بنت النسق الحضاري الذي توحد عناصره اللغة والمنهج والعقيدة، ومن خلالهم تتحرك المعطيات الحضارية العلمية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية والفكرية

وما إلى ذلك. ولذلك فإن استعارة المفاهيم من الأنساق الحضارية الأخرى دون رؤية ونقد وتبصّر يحدث خللًا في بيئة النسق الحضاري، ومن ثم خللًا في العلاقة بين معطيات الحضارة، لينتهي إلى جملة اضطرابات عقائدية وأخلاقية وفكرية.

من بين المفاهيم التي يهتم بها هذا البحث، وبصياغتها والكشف عن دلالاتها ووظيفتها الحضارية هو مفهوم (الأدب الإسلامي)، هذا المفهوم الذي أحسب أنه أكثر المفاهيم غيابًا عن ساحة الفعل الحضاري الإسلامي، أو أكثر المفاهيم ضبابية من بين المفاهيم السائدة، إسلاميًا وغير إسلامي، في حين ينبغي أن يكون أكثر المفاهيم حضورًا في ساحة الحضارة الإسلامية المعاصرة، ذلك أن الأدب هو خلاصة الوعي بالإنسان والحضارة والتاريخ والمستقبل، وهو البناء الجمالي للإنسان والحضارة ، وإنه الصوت الصارخ دائمًا في براري الحياة يتحدى الظلم والجوع والاضطهاد والحقد والحرمان، إنه عشق الإنسان الدائم للحرية والحب والجمال، وإنه صوت الدفاع عن الخير والحقيقة والحرية ضد كل قوى الاستلاب الإنساني.

ينطلق البحث من رؤية منهجية قرآنية في صياغة المفهوم، إيمانًا منا بأن المفاهيم الإسلامية المنضبطة بالقرآن الكريم، المنبثقة من رؤياه للوجود، هي أحكام شرعية علمية شأنها شأن العبادات كالصلاة والصيام. تتعلق بمسيرة الإنسان والمجتمع والحضارة، وهي تدخل في إطار الفروض المعرفية الإسلامية التي غابت – مع الأسف – عن انشغالات العقل المسلم بسبب خطأ التصورات السائدة عن الدين، هذا فضلًا عن كون عملية بناء المفاهيم تعد أحد أشكال إقامة الوجه للدين، آخذين بعين الاعتبار أن الأدب هو نشاط جمالي يعتمد الحق والخير والفضيلة منطلقات في بناء الإنسان والمجتمع، وهو أحد أهم أدوات الحفاظ على (الهويّة) الحضارية للأمة، ومن أجل إنجاز هذه المهمة رأينا أن يتوزع البحث على المحاور الآتية:

أولًا: المفهوم الإسلامي وأسلوب تكوينه

إن بناء المفاهيم عملية معرفية حضارية خطيرة، كونها تعني عملية استيعاب للفضاء الحضاري الذي نعيشه ونفكر فيه عبر اللغة والعقيدة والمنهج ومعطياتهم العلمية والأدبية والاجتماعية... وما إلى ذلك، وهي كذلك عملية تساهم إسهامًا خطيرًا في إعادة تكوين (العقل المسلم الحضاري) بمستوييه الفردي والجماعي اللذين يشكلان ميدان عمل المفاهيم، ذلك أن (تحليل بنية المحتوى المعرفي لأية حضارة يرتكز على ثلاثة عناصر في غالب الأمر هي: المفاهيم، والعلاقات التي تؤلف من المفاهيم حقلًا، والعلاقات التي تشكل من الحقول نسقًا، ولو نحينا جانبًا البحث في هذه العلاقات لوجدنا أن المفاهيم تحتل من البناء الفكري لأي نسق معرفي موقع الحجر الأساس) [6].

لقد اهتم القرآن الكريم بقضية المفهوم اهتمامًا واضحًا، ابتدأت -كما يعرضها القرآن الكريم – مع أول تعليم إلهي للإنسان،﴿ وعلم آدم الأسماء كلها... ﴾(البقرة/31). ذلك أن عملية التعليم هذه هي أولى المهمات الإعمارية الاستخلافية في الأرض، حتى لا يدع الله عزّ وجلّ الإنسان إلى نفسه واجتهاده في سائر المفاهيم الأساسية التي تتوقف عليها مهمة الاستخلاف، فعلّمه الألوهية والعبودية والزوجية والأبوة والبنوة والأخوة إلى غير ذلك من المفاهيم التي تشكل قاعدة البناء الاجتماعي التي تقوم عليها خلافة الإنسان في الأرض[14].

وكذلك علم الأنبياء عليهم السلام مفاهيم النبوة والرسالة والتوحيد والشرك والعمل الصالح. وعلم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مفاهيم أخرى مبثوثة في القرآن الكريم. إذ تكاملت معه المفاهيم الإلهية الخالدة، ولا أدلّ على أهمية المفهوم وتحديده في حياة الإنسان والمجتمع من قوله تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾(البقرة/104).

وقد نبّه القرآن الكريم، محذرًا مما وقعت فيه الأمم السابقة من تحريف الكلم عن مواضعه وغيرها من أساليب تحريف الخطاب الإلهي ومفاهيمه، وما تشكله هذه العملية من تحريف للحقيقة، وتحريف للنسق الحضاري للأمة.

تتمثل بعض مظاهر أزمة الفكر الإسلامي عامة والأدب خاصة، في هذه الفوضى الحضارية التي اجتاحتهما عبر عملية غزو (المفاهيم) الغربية للنسق الحضاري الإسلامي، فأحدثت انشقاقات خطيرة عقائدية وأخلاقية واجتماعية وأدبية وفكرية وثقافية، وأفقدته وحدته وتجانسه وتكامل معطياته المعرفية والعلمية والاجتماعية والجمالية، فغرّبته عن الزمان والمكان، تغرّب عن الزمان حين لم يجد بديلًا عن مواجهة هذه الفوضى سوى الوقوف عند معطيات المنجز الحضاري الإسلامي القديم على مستوى الأدب وعلى مستوى حقول المعرفة الأخرى. وتغرّب عن المكان حين أخذ يفكر بمفاهيم الغرب ومعطياتها المعرفية، فهو لا يعيش زمانه بعقل إبداعي قادر على التجاوز ولا يعيش المكان بمؤثراته البيئية والحضارية فيتصدى لها بأدواته المعرفية الأصيلة، إنه في الحالتين يستعير منجز الآخر، إما عبر الزمان من الماضي، أو عبر المكان من الغرب الأوربي.

لذلك فإن عملية مواجهة هذه الفوضى الحضارية – على الصعيد المعرفي والأدبي – تعد ضرورة شرعية وحضارية، فهي ضرورة شرعية تتمثل في عدم طاعة غير المسلمين، لاسيما فيما يتعلق بالعقيدة ونمط التفكير، يقول تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾(آل عمران/149)

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾(البقرة/120)

والاستجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى والتمسك بهداه التي يشكل الأدب وجمالياته وأنماط التفكير ومناهجه أحد معطياته.

وتعد ضرورة حضارية لأنه من غير المعقول أن نعيش حضارة تخترقها مفاهيم الغرب ومعارفه كل يوم عبر مختلف الوسائل في محاولة لإضعافها وإنكار هويتها وأصالتها العقائدية والفكرية والعلمية، دون أي موقف جهادي ضد هذه المحاولات التي دعا القرآن الكريم إلى التحصن ضدها، عبر الآيات القرآنية التي تنهى عن التشبه بأهل الكتاب، والذي يعد (التشبه المعرفي وغير المعرفي) من أخطر

أشكاله وأكثرها خطورة في تشويه العقل المسلم وانحرافه عن هدى الله سبحانه وتعالى.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا... ﴾(آل عمران/156).

﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا ﴾(الفرقان/ 52)

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم... ﴾(الحشر/19)

وعليه فإن عملية مواجهة هذا الغزو وهذه الفوضى الحضارية – معرفيًا – لا تكون مجدية ومعطاءة إلا بإعادة صياغة (مفاهيم) الأمة صياغة إسلامية على وفق أسس علمية إسلامية محضة، تستقى من كتاب الله سبحانه وتعالى مستفيدة من عطاء العلماء المسلمين في الاختصاصات الأدبية وغير الأدبية كافة.

وحتى تكون عملية البناء فاعلة لابد أولًا من استحضار مفاهيم القرآن الكريم أولًا، والوقوف على بنيتها المعرفية، وإجراء عملية تفكيك لها للوقوف على مكوناتها الداخلية في ظل منهجية إسلامية تأخذ بعين الاعتبار القضايا الآتية:

قواعد التأسيس للمفاهيم.

عناصر ضبط المفاهيم

منهجية بناء المفاهيم.

إجراءات تكوين المفاهيم.

مقاصد عملية تكوين المفاهيم.

وفيما يتعلق بقواعد التأسيس للمفاهيم، فإن أهم قضية فيها هي: إن المفاهيم عملية في صميم قضية الهوية، والمفاهيم بوصفها انعكاسًا للجوهر الحضاري ليست سوى منظومة فكرية، يفترض فيها الانسجام بوصفها منظومة تتضمن عناصر مختلفة ووحدات مفاهيمية متعددة ومتنوعة، لا يمكن رؤيتها إلا بوصفها عناصر مترابطة متراكمة تؤثر يقينيًا على موقعها في البيئة المعرفية، وقيمتها في السياق الفكري، وحجيتها في العملية الحضارية الممتدة، وسواء تراتبت المنظومة المفاهيمية درجات سلمية او حلقات دائرية متداخلة، فإنها

بحكم القاعدة التي تحكم النظام، والمنظومة هي متفاعلة وربما تكون متكاملة متساندة [5].

وهذه العلاقات بين المفاهيم تفترض ألا ينظر للمفاهيم على أنها كتلة صماء في عملية البناء. ونتعامل معها على صعيد واحد وبالطريقة نفسها من البناء، بل يمكن في هذا السياق الإشارة إلى أكثر من مستوى لتناول المفهوم أو بنائه.

فهناك المفاهيم الحضارية القاعدية، والمفاهيم المحورية، والمفاهيم الاطارية، والمفاهيم الكلية، والمفاهيم الخاصة، والمفاهيم القيم، والمفاهيم الوسائل، والمفاهيم المقاصد، والمفاهيم كأطر تحليلية، والمفاهيم المرجعية، والمفاهيم المنهجية[5].

إن بناء المفهوم بوصفه وحدة معرفية لها أهميتها في البنية المعرفية، ليست عملية ارتجالية، وإنما هو جهد منهجي يقوم على تحديد نَسب المفهوم وإسناده إلى أي من الصفات آنفة الذكر، ثم تحديد المقاصد التي تتم من أجلها عملية بناء المفهوم، وصولًا إلى تشغيله في الواقع.

ولما كان بناء المفاهيم الإسلامية يعتمد بالدرجة الأساس على الوحي فهو إذن من صميم عمليتي التدبر والتذكر، وهما عمليتان عقليتان لهما دورهما المميز في عملية المعرفة [13]. إذ أن الوحي يشكل مصدرًا هائلًا لمفاهيم تشكل نماذج معيارية وقياسية تتميز بكونها منظومة متكاملة للحكم على الأشياء والأحداث والوقائع زيادة على كونها عملية نقل لطريقة القرآن الكريم في الربط في المفهوم بين جانبي العلم به والعمل بمقتضاه بعيدًا عن الصيغ اللفظية الشكلية.

إن بناء المفاهيم الإسلامية هو الوعي بجوهر الرؤية الإسلامية التي تقوم على وحدة الإيمان والعلم والعمل.

★ سمات المفاهيم القرآنية:

لما كان بناء المفاهيم الإسلامية يعتمد بالدرجة الأولى على المفاهيم القرآنية، فلابد من إدراك طبيعة المفهوم القرآني.

إن المفهوم القرآني ليس مدركًا عقليًا يدور في إطار البحث اللغوي واللفظي البحت، ولكنه تعبير عما ينبغي أن يكون عليه الوعي الحضاري الإسلامي، كما أراده الله سبحانه وتعالى، نافذًا من الأعماق، يصوغ الأحاسيس، ويشكل النيات، ويوجه فكر الإنسان المسلم، وبالتالي يصوغ الحياة كلها [6].

ومن السمات الأخرى للمفاهيم القرآنية هي سمة المفتاحية، فالمفاهيم القرآنية مفاهيم مفتاحية، أي إننا إذا وضعنا أيدينا على أي مفهوم قرآني، وطفقنا نطرح عليه الأسئلة فإنه ينفتح بنا على مفاهيم أخرى، فإذا أخذنا مفهوم (القوة) مثلًا، الذي ورد في سورة النحل في قوله تعالى:﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثًا﴾(النحل/92)، ونسأل لأي اعتبار وصف الغزل بالقوة؟ فسنجد أن الغزل الذي هو مجموعة خيوط مبرومة بطريقة يتكون منها النسيج، والإشارة هنا إلى مجموعة يمكن أن تكون سياسية أو اجتماعية أو أدبية فاعلة بينها وبين مجموعات أخرى من نوع العلاقة قائم على العهد، فإن حفاظ هذه المجموعات على العهد سيقوي نسيجها الاجتماعي الذي يقوم عليه سائر صنوف قوتها، وبعكسه إذا نقضت عهدها انتقض مصدر قوتها، وهكذا ينفتح بنا تحليل مفهوم العهد على مفاهيم أخرى مثل الإيمان والأمانة والميثاق والعقد، وسنصل في نهاية العملية التحليلية إلى مجموعة عديدة من المفاهيم ذات الترابط الداخلي التي تكشف بصورة مذهلة عن الوحدة البنائية التي تنتظم فيها كل المفاهيم القرآنية [8].

ولذلك فإن استخدام المفاهيم الإسلامية من مصدرها التأسيسي الأصيل واستحضارها واقعًا حركيًا معاشًا، ليس إلا عملية جعل القرآن الكريم خلقًا حركيًا يسير في الأرض، أي جعله سلوكًا عمليًا وعلميًا وأدبيًا، إذ تتأكد الرؤيا الإسلامية واقعًا وممارسة.

وعليه يعد أخطر أشكال هجران القرآن الكريم تلك العملية المعرفية التي تستبعد القرآن الكريم عن كونه مصدرًا تأسيسيًا في بناء المفاهيم الإسلامية والوعي الإسلامي، وكذلك يعد هجرانًا للقرآن الكريم هذا العجز عن إعمال المفاهيم

القرآنية خاصة والإسلامية عامة في حياتنا بعناصرها كافة...الأمر الذي يقودنا إلى الانتقال إلى معالجة قضية علاقة المفهوم بالواقع.

★علاقة المفهوم بالواقع:

تكمن علاقة المفهوم بالواقع في استقلالها من حيث بناؤها الثابت من جهة، ومن حيث التعامل مع الواقع تقويمًا إذا انحرف، وتكريسًا وتأكيدًا إذا اهتدى من جهة أخرى. وعلاقة المفهوم بالواقع هي علاقة تقويم مستمرة ومتجددة، لكل سلوك سواء أكان فرديًا أم جماعيًا، وفي مختلف مستويات الوجود الاجتماعي.

وتضعنا علاقة المفهوم بالواقع أمام قضية أخرى، ألا وهي قضية (تشغيل المفهوم). وهي عملية تظهر في النسق المعرفي والواقع بعد صياغة المفهوم، ذلك لأن عملية تشغيل المفهوم تقع في قلب عملية بنائه.

فحجية المفهوم لا تتأتى من بنائه وحسب، وإنما من تشغيله، أي المواصلة (مع المفهوم وبه) نحو آفاق جديدة من إجراء دراسات تستند اليه، وإعادة فهم وتحليل ظواهر استخدامه أو تأسيسه وتأسسه في الواقع العملي والحياتي. فالتشغيل له مجالات عمل وفعل سواء في النسق المعرفي أو في الواقع العملي [9].

لذلك وفي إطار ذات المهمة التي نتصدى بها لإدارة الموقف الثقافي مع الغرب (التثاقف)، لابد أن يكون إحدى مهمات الفكر الإسلامي المعاصر بعامة، والأدب بخاصة، فضلًا عن عملية بناء المفاهيم الإسلامية، الاهتمام بتشغيلها في الواقع معرفيًا وعمليًا. إذ في تشغيل المفاهيم تعبّر الأمة عن استقلالها وخصوصيتها وأصالتها واستنهاض قدراتها الإبداعية.

فما أسس تشغيل المفهوم في الواقع؟

★أسس تشغيل المفهوم:

لأن تشغيل المفهوم في الواقع يعد المسألة الحاسمة في إعادة البناء الفكري والحضاري للعقل المسلم فلابد أن تقوم عملية التشغيل هذه على عدد من الأسس والمحددات يمكن إجمالها بالآتي:

أ-الواقع:

يعد المفهوم أحد أهم أدوات تفسير الواقع، وأحد أهم أدوات التعبير عنه كذلك، فمن حيث كونه أداة تفسير للواقع فالأمر يرتبط بالقدرة على صياغة خطاب مؤثر وممارسته، ومقال صالح يجد له حضورًا في نفسية أبناء المجتمع وعقولهم المستقبلية ولا يكون غريبًا عليهم بل يتحدث بلسانهم ويبلغ من أنفسهم كل مبلغ.

لقد أكد القرآن الكريم على هذه القضية بقوله تعالى:﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾(إبراهيم/4) وقوله تعالى:﴿وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغًا﴾(النساء/63)

ومن حيث كون المفهوم تعبيرًا عن الواقع، فلا يمكن فصل قضية المفاهيم عن اللحظة التاريخية والحضارية التي نعيشها الآن، اذ أن شيوع مفاهيم أمة وانتشارها دليل على مدى قوتها وتقدمها.

ب-الإطار المرجعي:

وهو خصائص التصور الذي تنطلق منه كل حضارة في نظرتها لله والإنسان والكون والحياة، عبر المفاهيم الحاكمة التي تشكل موقع القلب في هذا الإطار المرجعي، وهي التي تنبثق منها رؤية المفاهيم الأخرى المتعددة، وتحدد العلاقة بين المفاهيم بعضها ببعض، وهي التي توحد ما يمكن أن نسميه (التساند المفاهيمي).

وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن (المفاهيم الحاكمة) هي الأساس في البناء الحضاري فيما تمتلكه من قوة وتأثير في مجمل البناء المعرفي للعلم و (الأدب)، وبما تمتلكه من قدرة على تأسيس ممارسات يومية وحياتية فضلًا عن المؤسسات والنظم المتعددة، ولذلك فإن السيطرة على المفاهيم الحاكمة يؤدي حتمًا إلى السيطرة على مجمل البناء المفاهيمي.

جـ-تحليل المفهوم:

المفهوم بنية معرفية تجمع بين صورة الشيء وهيكله، وبين القانون الذي يفسر تكوين هذا الشيء فهي نسق من العلاقات بين المبنى والمعنى [3].

إن تحليل بنية المفهوم وتحديد عناصرها الأساسية اللغوية والعقائدية والمنهجية وعناصرها الفرعية، يقود إلى فهم أفضل لبنية أي مفهوم، الأمر الذي يؤدي إلى الإدراك الوثيق والصحيح للمفهوم مع اجتناب اللبس وضبط حدود الأخلاق، كما إن معرفة مستويات المفهوم من حيث إذا كانت معرفية أو فلسفية، أو المستوى الظاهر للمفهوم الذي يبدأ بظواهر الحياة، أو المستوى التاريخي الذي يمثل الضرورة التاريخية له، يعد ضرورة علمية في تشغيل المفهوم أو عمله في الواقع [3].

د-الجمهور المتلقي:

تثير هذه النقطة عددًا من القضايا، هي:

دراسة مقومات التشغيل التي تصيب جمهور المتلقي التي تختلف من نوعية إلى أخرى.

العلاقة مع المنظومة المرئية السائدة من جهة الأصالة والاختلاط، إذ قد يكون التمييز والأصالة عن طريق المنظومة المعرفية السائدة، هو تشغيل المفهوم.

القدرة على التواصل مع ما هو موجود، وهو في سبيل التشغيل.

هـ-قنوات التشغيل:

تستخدم العديد من الأدوات والقنوات في عملية التشغيل، وقد تتضافر مع بعض في تشغيل مفاهيم بعينها، كما يلاحظ الآن في واقعنا الثقافي والعلمي حيث يتم تشغيل مفاهيم جديدة من مفاهيم الموضة عبر العديد من الأدوات والقنوات مثل التعليم ومراكز البحث العلمي والفنون والمدارس الفكرية والأطروحات الجامعية والندوات وما إلى ذلك.

ومن خلال هذه النظرة العلمية للمفهوم الإسلامي، سنعمل على كشف بنية مفهوم الأدب الإسلامي، من أجل تفعيله وتشغيله في الواقع أدبيًا وعمليًا وإسهامًا في تحقيق نهضة أدبية إسلامية تشمل كل إشكال الإبداع.

ثانيًا: مفهوم الأدب الإسلامي

الأدب الإسلامي نتاج العلاقة بين الثابت الإسلامي المتجلي في النص القرآني وجمالياته – وبين المتغير المتمثل في المعطى الحضاري الإسلامي وجمالياته كذلك.

فقد أحدث الثابت الإسلامي تحولًا جذريًا في صميم الضمير الإنساني العربي، تمثل هذا التحول من (الموقف) المعبر عن وجود الإنسان في بيئته المحلية (مكة) وأطرافها في الجزيرة العربية، إلى (موقف) مجرد عن هذا الوجود البيئي لكي يحقق بذلك شموليته في البيئة ذاتها لكي تصبح هذه أنموذجًا لكل البيئات في العالم من خلال (التوحيد) المطلق لله سبحانه وتعالى، الذي تطورت في ظله منظومة القيم الحضارية الإسلامية [7]. ومنها منظومة الأدب والفن التي شملت مساحات كبيرة في الحضارة الإنسانية التي اختار الكثير من أبنائها الإسلام طريقًا للحقيقة والشريعة والجمال.

وبناءً على هذه الرؤية القرآنية للوجود والإنسان التي امتدت لتشمل العالم بأسره، قامت الثقافة الإسلامية، وفي طليعتها الأدب الإسلامي بعناصره المتعدد، ولذلك يبدو من الصعب استبعاد الأعمال الأدبية الرصينة التي استلهمت الرؤية الإسلامية للعالم واقتربت منها عن إمكانية إثراء الأدب الإسلامي والانتماء اليه.

فلا يمكن مثلًا إغفال بعض أعمال الشاعر (جوته) لاسيما في ديوانه الشرقي... واستبعادها عن ساحة الأدب الإسلامي ما دامت رؤاه، وكثيرًا من موضوعاته منسجمة مع الرؤية الإسلامية للإنسان والوجود.

ولنا في هذا الفهم دليل من النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتابع الشعر الجاهلي الذي كان يعجب بكثير من أفكاره وحكمه، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى الوظيفة الاجتماعية للشعر بوصفه تاج الأدب، وقد عبر عن ذلك

بمقولته الرائعة: "الشعر كلام فما وافق الحق فهو حسن ومالم يوافق الحق فلا خير فيه" [24].

إن موقف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الشعر يحدد تصورنا لإسلامية الأدب، التي تعني تبني الأديب الرؤية الإسلامية في معالجة قضايا الحياة المتعددة.

إن الأدب الإسلامي في ضوء الرؤية القرآنية للإنسان والوجود وفي ضوء الموقف العملي للرسول صلى الله عليه وسلم من الأدب بعامة، هو الأدب الذي ينبثق من التصور الإسلامي للإنسان والوجود، أو على الأقل إلا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان ولا ينحرف عن هذه المفاهيم [22].

إن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر لا يقتصر على الموقف المذكور آنفًا، وإنما هناك العديد من المواقف الأخرى المماثلة إزاء الأدب الجاهلي والشعراء الجاهليين، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعجب بشعر عنترة بن شداد ولم يكن أدرك الإسلام – وكذلك بشعر أمية بن أبي الصلت الذي أدرك الإسلام ولم يسلم – كان يقول فيه (آمن شعره وكفر قلبه "وتذكر له المصادر القديمة أخبارًا في الاعشى وغيره من المخضرمين مثل زيد بن عمرو الذي قال فيه: "إنه يبعث يوم القيامة أمة واحدة" [24].

إن العلاقة بين الأدب والإسلام لم تكن علاقة عادية – وإنما هي نابعة من صميم عقيدة التوحيد وانعكاساتها على الواقع الحياتي بكل تفصيلاته الأدبية والعلمية والاجتماعية والثقافية والسلوكية الإنسانية.

فما علاقة التوحيد بالأدب الإسلامي؟ وكيف يكون الأدب إسلاميًا؟

إن الإجابة على هذين السؤالين تتطلب تحديد عناصر الأدب الإسلامي وعلى النحو الآتي[4]: **1**-التوحيد:

إن وحدانية الله تعالى هي المبدأ الأول للإسلام ولكل ما هو إسلامي على مستوى العلم أو الأدب، وفحوى هذا العنصر أنْ لا إله إلا الله، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأنه مطلق الجمال والكمال بكل المقاييس، ليس كمثله شيء، كل موجود سواه مغاير له، ومخلوق له، وهو الخلاق ليس له شريك،

بأمره توجد الموجودات وإرادته هي التي تحدد غاية وجود الكائنات، وهي القانون الذي يحكم الكون والمخلوقات ويقنن السلوك والأخلاق.

وأن التوجه لله والرغبة لله تعني التوجه إلى الخير والعدل والحق، وهي أسمى الغايات وأسمى مراتب الوجود، ويُعد الأدب الواعي لهذه الحقيقة أرقى أشكال الأدب-لأنه يعد أحد أشكال إقامة الوجه لله عز وجل بالقول الجميل، والخير النافع المنسجم مع هدى الله.

وإن التفكير على المستوى الأدبي الواعي بوحدانية الله، يعني الوعي بربوبية الله الحق وألوهيته الحق في عالم غايته الحق والجمال والخير والإعمار والحيوية والجدية، والأدب الذي يعي هذه الحقيقة يدرك من العلاقات بينه وبين الكائنات مالا يحده حد.

ومادام الله عز وجل هو الخالق، وهو الديان فلن يكون الأدب إسلاميًا حقًا حتى يسير على هدى الحق الذي حددته إرادة الله قاصدًا به وجه الله وحده.

إن الأدب الإسلامي في إطار وعيه بالتوحيد وانطلاقه منه يستبعد أي اعتقاد بالحلول، والتجسد، أو الانبعاث أو الاستطراق أو الاتصال الجوهري بين ما هو قدسي وما ليس بقدسي، أو بين الخالق والمخلوق، وهو يستبعد تماما أن الذات الإلهية يمكن أن تمُثل، لأن مثل هذا يتضمن دخولها في إطار الزمان والمكان مما يخل بحقيقة التنزيه [20].

ولكن هل التوحيد يلغي الاتصال مع الله نهائيًا؟

لا.. فالاتصال قائم، ولكن هذا الاتصال يجب أن يكون بطبيعته مما لا يمس قداسة الذات الإلهية أو التنزيه، إنه يمكن أن يتم فقط في الذهن الإنسان، وحتى في مثل هذه الحالة فإنه لا يكون اتصالًا بالذات الإلهية ولكنه اتصال بمشيئة هذه الذات: إن الإسلام يؤكد في هذا الصدد أن يظل من الثابت دائمًا في ذهن المسلم أن الكلمات والتصورات والأفكار التي يعبر بها عن هذه الذات الإلهية يجب أن تؤخذ (بلا كيف) مباشرة وبدون الاعتماد على ركائز تخيلية، وذلك حتى لا يساء فهم تلك الذات، وحتى في حالة القرآن الكريم فإنما يحيط به المسلم خلال كلماته ليس

الله، وإنما إرادة الله للخلق، فكلمات القرآن ليست رموزا معبرة عن الذات الإلهية، وإنما هي (كلماته القدسية) (بلا كيف) فمن التجديف في الله، إذن، الادعاء بأن شيئا في الطبيعة، وخاصة في الإنسان، يمكن أن يؤخذ على أنه رمز للذات الإلهية المقدسة وأداة لها، أو إيحاء بها أو التعبير عنها، أو تجسيد لها أو فيض، أو اشتقاق منها، فلا شيء مما يدرك بالحس أو بالوعي المحسوس يرقى أو يمكن أن يرقى إلى مستوى تلك الذات [20].

فإذا كان الأمر كذلك مع الذات الإلهية فكيف يتصرف الأدب الإسلامي حين يتعامل مع الله عز وجل في ظل هذا التصور؟

هنا ينبغي الانتباه إلى أن عدم التعبير عن الذات الإلهية قضية، والتعبير عن الحقيقة الجميلة المتضمنة لتلك الحقيقة الفكرية قضية أخرى، فإذا كانت القضية الأولى سلبية، فإن القضية الثانية إيجابية، وهي الميدان الذي تتجلى فيه روعة الأدب الإسلامي وعبقريته.

لقد مد (التوحيد) الأدب الإسلامي بالقدرة على التعبير عن اللاطبيعية واللانهائية في الوجود دون المساس بتنزيه الذات الإلهية، وذلك من خلال اللغة العربية التي اختارها الله عز وجل أداة لإيصال رسالته- التي تتألف أساسًا من مجموعة من الجذور اللغوية يتركب كل منها من ثلاثة حروف صامتة (وهي النسبة الغالبة في اللغة) ويصلح للتصريف إلى ما يربو على ثلاثمائة صيغة، وذلك إما بتغيير الحركات أو بإضافة سوابق أو لواحق أو مقاطع في الوسط، على أن كل الكلمات التي تنتمي إلى صيغة صرفية واحدة، حين نقوم بتصريف مجموعة مختلفة من الأفعال مثلًا، تتضمن معنى مشتركًا خاصًا بهذه الصيغة، فيظل المعنى الخاص بالجذر باقيًا، وإن دلت الصيغة الجديدة على المعنى الصرفي الخاص بها.

إن السيطرة على اللغة، بوصفها أداة الأدب التعبيرية، مسألة ضرورية في صياغة الأدب الإسلامي، وتتم السيطرة على اللغة باستيعاب بنائها القاموسي والبلاغي السابق والممتد في الوجدان الإنساني، ذلك أن الأدب الإسلامي بناء متناسق مركب من تصورات ينتمي بعضها إلى بعض بطرق يتم فيها استخدام المتوازيات

والتناقضات التي تنبثق عن تصريف الجذور اللغوية المختلفة، وهو في الوقت نفسه يساعد الفهم على الحركة في خط مستمر لا ينقطع، وعلى وتيرة رياضية متناسقة.

إن هذا البناء الهندسي في اللغة العربية يعين الأدب الإسلامي على إدراك (اللانهائية طالما جذور الكلمات كثيرة إلى أبعد الحدود، بل في الحقيقة (لانهائية) مادام تركيب أي ثلاثة أحرف صامتة يمكن (بالتواضع) أن يحدد معنى لغويًا جديدًا - ومن هنا فإن الوجدان العربي إذا تبنى بعض الجذور ذات الأصل الأعجمي لا يؤثر في تماسك اللغة، طالما أنه يعتمد على الموازين الصرفية التي تعرب ذلك الجذر ومشتقاته تمامًا.

إن هذه اللانهائية في عدد الجذور تقابلها أيضا لانهائية في التصريف، فهنالك ثوابت صرفية معروفة، مع أن عددًا محدودًا من الجذور هو الذي صرف، وأصبحت تعد تصريفاته شاسعة ومستخدمة، الأمر الذي يعني أن اللغة العربية تحمل في طياتها بذور الإبداع الدائم حين يتوفر الأديب العبقري القادر على توليدها في فضاءات الأدب والعلم وفي مختلف الاتجاهات. وتتألق هذه العبقرية أكثر حين يستوعب الأدب والأديب لغة القرآن.

إن لغة القرآن التي لا تفرق بين المعنى والصياغة، وبتكرارها المتنوع للصياغات والمعاني، تفتح الوجدان وتملؤه بالقوة الدافعة التي تدفع به إلى الاستمرار أو التكرار المبدع إلى ما لانهاية، وهنا يبدو الشكل والمضمون، أو الصياغة والمعنى في وحدة كاملة تقود إلى الوعي بعظمة الحقيقة الإلهية والوعي بلا نهائية الذات الإلهية وبعدم التعبير عنها أي بتنزيهها[21]، ولكنها في الوقت نفسه تقود إلى إدراك جمال معطيات الذات الإلهية في الوجود.

2-الحداثة:

الحداثة هي عملية إعادة صياغة للواقع والحياة صياغة جديدة بمنهج جديد قابل للحياة يعيد الحيوية والحركة والانبعاث لما هو قائم وساكن، ويضيف

الجديد إلى عناصر الوجود على المستويات المعرفية والأدبية والاجتماعية والفكرية، وما إلى ذلك.

والحداثة بهذا المعنى ضرورة حضارية تنتقل بالإنسان والأمة إلى المستقبل عبر استيعاب الحاضر والماضي، ذلك أن للزمن سيرورة دائمة يحوي من بين ما يحويه ذاكرة الأمة وخبراتها وعطائها الذي يشكل دائمًا منطلقًا لحداثة أصيلة.

والحداثة عملية انفتاح جديد على الوجود، لتظل حركة الحضارة فاعلة كفؤة تنبثق من داخل الحضارة ذاتها، ومن داخل ثقافة الأمة مرتبطة بأسسها العقائدية ورؤيتها للكون والإنسان والمجتمع، وهي ليست استيراد نماذج وأشكال وإشكاليات، وإنما هي إعادة بناء من داخلها كذلك، وانبثاق معرفي جديد من داخل الأمة، وهي عملية بناء للذات الحضارية. ثم بعد ذلك كله تبدأ عملية الانفتاح على الآخر والتفاعل معه، إنها ليست عملية اندماج في الآخر، أو تلاشي معه أو به أو فيه، وهي حركة ضرورية عندما يسود السكون والموت المعنوي والحضاري، هي نار معرفة تنبثق من أعماق الحضارة والثقافة تشمل أعشاب الوجود الصفراء فتهيء لربيع المعرفة الجديد، هي عملية إبداع للحضارة وللمعرفة وللثقافة وللأدب وللإنسان، وبذلك فهي وعي واختيار مسئولية وحين لا تكون كذلك تكون (موضة) سرعان ما تتهافت أمام أنموذج آخر ينتظر تهافته الآتي، والنتيجة هي بقاء السكون مرتديًا ثوب حركة لا تليق به.

إن الحداثة التي ينبغي للأدب الإسلامي التزامها، هي التي تحسن استثمار النسق الحضاري الإسلامي ومكوناته، ذلك أن الحداثة إسلامية كانت أم غير إسلامية كي تكون أصيلة وحقيقية لابد أن تنبثق من أعماق نسقها الحضاري، هكذا كانت أو ينبغي أن تكون الحداثة الإسلامية وفي ظل الأسس الآتية:

تحديد الأصول الاعتقادية.

تحديد النظام المعرفي الذي تعمل فيه.

تحديد النظام الأخلاقي الذي تعيش به.

تحديد الإطار المادي للحضارة بكل أدواته وابتكاراته ونظمه وفنونه وأدبه.

تحديد طبيعة العلاقة مع الكون وأسس التعامل معه.

تحديد طبيعة العلاقة مع المجتمعات الإنسانية.

إن إدراك قضية الحداثة في التاريخ الإنساني بعامة والإسلامي بخاصة، يكشف عن إنها كانت مصيرًا حضاريًا دائم الحضور يتجدد من داخل الأمة ويتجدد عبر إعادة قراءة (المكون المعرفي) قراءة جديدة تعيد إدراك النص في ضوء حركة الحياة، لتضيف نصها الجديد، وهكذا يستمر الجدل بين القراءة والنص، والقراءة والواقع في تأسيس الجديد رؤية ومنهجًا وموضوعًا.

نزل النص المؤسس للحداثة الإسلامية (الوحي) داخل الأمة وتشكل فيها، واستوطن لغتها لسانًا وخاصيةً ووجودًا، فانفتح به العقل العربي، وانفتحت به على الوجود الشامل عبر ما هو خاص، وعبر المشترك الإنساني، العقل والحرية والجمال والمستقبل والحب والحقيقة.

لقد صدمت حداثة الوحي الوجود العربي الحضاري والثقافي والإنساني بلغته أولًا، ثم بقضايا الوجود كافة، كسرت وجوده اللغوي فتكسرت الرؤية والعبارة، وأعادت تشكيله بلغة القرآن والحداثة وهي ذات الحروف التي استعملها أمرؤ القيس، وطرفة بن العبد وعروة بن الورد، وزهير بن أبي سلمى، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة، ولكن هذه المرة باستعمال جديد عبر منهج جديد فتح آفاق اللغة على ذاتها فرأت الحرية تحتضن الوجود والعقول، وفتح آفاق اللغة على العالم فرأته فعلًا إلهيًا يرقد في أحضان القدرة الإنسانية التي سرعان ما استثمرته بناءً حضاريًا شامخًا بالحرية والجمال، تستمد من (التوحيد) مقومات النهضة والحرية والعلو.

إن مضمون حداثة الأدب الإسلامي مستمد من مضمون حداثة الوحي والتي تعني أن الإنسان محور الحداثة في الإسلام، له الكون وله اللغة، وله الحقيقة، وله الفرح وله العلو وله المستقبل.

حداثة الإسلام محبة حقيقية بين الله والإنسان لأجل أن يعلو الإنسان إلى الله تعالى.

حداثة الإسلام صداقة بين الإنسان والكون يعيد ابتكاره جمالًا وخيرًا.

حداثة الإسلام صداقة حقيقية بين الإنسان والإنسان لا يظلمه ولا يحقره.

حداثة الإسلام فعل معرفي دائم التجدد والاكتشاف، وتشكيل جمالي للوجود عبر الإيمان واللغة والعقل والتجربة والفعل والتجاوز.

حداثة الإسلام استقلال حقيقي للذات الإنسانية في إطار الجماعة، وفعل حقيقي للجماعة في الذات الإنسانية، وجدل دائم بين حريتين واستقلالين، حرية الفرد في الجماعة، وحرية الجماعة في الفرد، واستقلال الفرد في الجماعة، واستقلال الجماعة في الفرد، (فالفرد غابة في حداثة الإسلام والجماعة شجرة في غابة الفرد).

أقامت حداثة الإسلام قواعد لا تنغلق بالأمة على الآخر، بل جعلت من التعارف بين الأمم ضرورة حضارية إسلامية، وجعلت من العلائق الحضارية إحدى وسائل البناء المستمر للحضارة والثقافة والأدب والإنسان على أساس وحدة الخلق ووحدة الحقيقة وتعدد الحضارات الإنسانية وتنوعها.

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم أن الله عليم خبير﴾(الحجرات / 13).

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾(محمد/ 24). كشفًا للحقيقة، أو عملًا بها. وحوار دائم مع النص / الوحي الذي يؤشر للمستقبل عبر إدراك الواقع الآن وتحمل مسئولية بنائه.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة/ 141)

حداثة الإسلام علمية موضوعية تعتمد الدليل والبرهان والحساب والإحصاء وتحترم رأي الآخر.

﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ... ﴾(البقرة/256)

وتوجب العدالة في التعامل مع الضد.

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾(المائدة/8)

حداثة الإسلام خطاب عالمي يجعل الأمة – أي أمة تتمسك به – حاضرة في فعل البناء العالمي للحضارة الإنسانية، بلا هيمنة ولا استعمار ولا تسلط.

﴿ هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾(هود/61).

حداثة الإسلام لا تعتمد على مركزية قومية أو عرقية أو طائفية وإنما تعتمد على حدود قدرتها بالتمسك بالحق والحقيقة والتواصي بهما.

وحداثة الإسلام منهج لحياة مثالية لا تسقط المادة من حساباتها، ولا تأسرها المادة فتحولها إلى مسخ وجفاف.

حداثة الإسلام إعادة استثمار لموارد الأمة الثقافية، ذلك أن طرق الحداثة والنهضة تبدأ من فتح بوابات التاريخ على آفاق الحرية، وأن اغتصاب التاريخ وتحنيطه اغتصاب للحقيقة والحرية.

إن حداثة الإسلام أحْيت أمة من (نص) إلهي، فانطلقت من زوايا معتمة في التاريخ لتضيء العالم بمشاعل العقل والحرية وتعيد تحديثه من جديد، فزها بالحرية والجمال، ذلك لأنها نور دائم الحياة والتوهج.

﴿ أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾(الأنعام/ 122).

في هذا الفضاء الحداثوي يعمل الأدب الإسلامي – أو هكذا ينبغي له.

الجمال:

إن الأدب الإسلامي وليد الجمال الإلهي المتمثل في كونه المتناسق الأنيق، وإنسانه المخلوق في أحسن تقويم فضلًا عن ارتباطه الصميمي بالقرآن الكريم بوصفه أعظم كتاب في الأدب والفن يدعو إلى تربية المزاج الجمالي للإنسان استشعارًا لقدرة الله في صنع الأشياء ولارتباطه بالعقيدة، لأن إشباع احتياجات الإنسان من الأشياء وحدها لا تكفي لتصور قدرة الله عز وجل، فكان لابد من رؤية الجمال في هذه الاحتياجات بما فيها من متعة نفسية في رؤيتها، ولذلك وجه القرآن الكريم الإنسان إلى المشاهدة الجمالية للكون، فالجمال طريق إلى الله عز وجل.

إن هذا يعني أن القرآن الكريم يعبّر عن طبيعة الإنسان في إدراكه الجمال بصورة ما، وفي المظاهر المادية والروحية الشتى بدرجات متفاوتة في الطبيعة، وفيما خلق الله سبحانه، وفيما ينسقه الإنسان من الكون من الألوان والنغمات والعبارات، ولأن الإنسان بفطرته خلق مزودًا بعوامل الاستجابة لما هو منسجم متناسق، والاندماج فيما يساير حسن التقويم الذي أبدعه الله على غراره، وجمال التكوين الذي أفاضه عليه.

إن مهمة الأدب الإسلامي وعي قوانين الجمال في القرآن الكريم في ضوء المنهجية التي عرضناها في الجزء الأول من المبحث من أجل تكوين مفهوم إسلامي له يحدد مساراته ومسارات الإبداع في ضوئه، وعند انجاز هذه المهمة سنرى أرقى درجات الجمال تتمثل في وحدة الخلق المنسجمة منطقيًا مع وحدانية الله عز وجل، الأمر الذي يقودنا إلى إدراك حقيقة أن النظام الذي يسود الكون هو الذي بمقتضاه يمكننا أن نتبين وندرك الأشياء في صور مواد أو خصائص أو علاقات أو أحداث، وصياغة هذا جماليًا في إطار الأشكال الأدبية السائدة.

إن الأدب الإسلامي ينبغي أن يعبر جماليًا عن حقيقة الإرادة الإنسانية وحقيقة العمل الإنساني، وحقيقة سنن الوجود وترابط الأسباب والمسببات وجدية الوجود الإنساني في الأرض وغايته ومسؤوليته، وعلاقة ذلك بإرادة الخالق سبحانه وتعالى.

الحق:

يتعرض العقل الإنساني إلى أوهام وضلالات وشكوك، على الرغم من أن الله عز وجل قد أودعه القدرة على تصحيح نفسه، هذه القدرة التي توفر له درجة لا بأس بها من الحماية، لكنه -بالنسبة للحقيقة المطلقة – وبسبب قصوره البشري، يحتاج إلى تعزيز من المصدر المبرأ عن الخطأ وهو الوحي، وبمجرد أن ترسى القضايا المتعلقة بالمبادئ الأولية أو المطلقة، فإن العقل يكتسب عندئذ قوة يستطيع بها أن يتغلب على ما يعترضه من مشكلات. ومن المفروض أن تكون

افتراضات العقل الأولية صحيحة مؤكدة بشكل قاطع، يكون بعضها كذلك لأنه بديهي، والبعض الآخر يعبر عن تجارب عامة للبشرية ككل، ولكنْ هناك ضرب ثالث غير ممكن إدراكه إلا لأولئك الذين تتوفر فيهم الدرجة المطلوبة من الحكمة أو نضوج الرؤية الدينية أو الأخلاقية أو الجمالية، ومنهم الأدباء المسلمون، وهم الذين ينبغي أن يروا الحقيقة على وجهها الصحيح، ذلك لأن إدراك الحقائق يتطلب عددًا من المؤهلات الضرورية التي يتعين وجودها وفي مقدمتها الإيمان المطلق بالله عز وجل وهديه المطلق العظيم مفتاح الدخول إلى ملكوت الحقيقة.

يجمع الأدب الإسلامي، في ضوء إدراكه للحق ووحدة الحقيقة المبني على المنهجية التي تعتمد القرآن الكريم مصدرًا لبناء الوعي والمفهوم، بين طرفي الوحي والعقل، ويبدع في ضوء إدراكه لطبيعة العلاقة بينهما. ذلك أن وحدة الحقيقة تفرض أنه ليس ثمة تعارض بين الحقائق الواقعية وما يأتي به الوحي فكل ما يقرره الوحي لابد أن يكون صادقًا منسجمًا مع الواقع موافقًا له، إذ لا يتصور أن يكون الله تعالى، جاهلًا أو غاشًا أو مضللًا مخلوقاته، فإن ظهر أي تفاوت بين الوحي والواقع فإن على المسلم أن يراجع دقة فهمه للوحي، وهي مهمة ينبغي للأدب الإسلامي أن يسهم في تناولها من خلال نماذجه المتعددة شعرًا وروايةً ومسرحًا وما إلى ذلك، وهو جهد يرتقي إلى مستوى الوظيفة المعرفية والأخلاقية والجمالية لمبدأ وحدة الحقيقة الذي يحمي المسلم من خطر التأويلات والتفسيرات المتسرعة أو المغرقة في المجازات التي لا سند لها إلا الفهم الشخصي التحكمي.

وفي ضوء وحدة الحقيقة ينبغي أن يعمل الأدب الإسلامي، على المدى، في تجلية الحقيقة وإدراكها والإسهام في حل التناقضات الوهمية بين الوحي ومسلماته ومدركات الحقائق الواقعية.

إن وعي الحقيقة في ضوء الوحي، ووعي قوانين المخلوقات والسنن الإلهية يحقق-حين تتوفر المواهب-إبداعات مستمرة، ذلك لأن سنن الله في خلقه غير محدودة وكل معرفة في ضوء هذه الحقيقة تقودنا إلى معرفة جديدة ومن هنا

فإن الاستعداد لقبول الجديد والإبداع خاصية لازمة للعقل المسلم بعامة، يتجلى في أروع ما عليه في الأدب الإسلامي، وفنونه كذلك.

وفي ضوء وعي وحدة الحقيقة ينمو الموقف الناقد لكل الدعاوى الإنسانية والبحث الدائب وراء قوانين الطبيعة التي لا تكون نهائية أبدًا، ومثلما هما شرطان لازمان للمنهج الإسلامي وللعلم الأصيل، كذلك فهما شرطان لازمان للأدب الإسلامي في رحلته الإبداعية الجمالية.

الخير:

الخير ضد الشر، وهو حصول الشيء على كمالاته، وهو الكمال والشرف والفضل، هذه بعض معانيه في قواميس اللغة كما ذكرها (المورد) في مادة (خار)، غير أن دلالته في القرآن الكريم أوسع وأشمل، فقد وردت لفظة (خير) في 139 آية قرآنية، هذا عدا اشتقاقاتها، لتشمل مجمل الفعاليات الإنسانية الروحية والمادية والعلاقة مع الله عز وجل في إطار تحديد أفضل سبل الخيار التي تحقق الفضيلة في ضوء هدى الله عز وجل الذي أعطى أدق وأنبل معاني (الخير) في إطار حركة الحياة في بعديها الدنيوي والأخروي.

ومن بين المعاني العديدة التي يوردها القرآن الكريم للخير، تلك التي ترتبط بـــ (القول) بوصفه نتاجًا جماليًا أو فعلًا معرفيًا إنسانيًا وقد فصّل القرآن الكريم أنماط القول الخيّر منه وغير الخيّر. وأدان بشدة القول غير المسؤول، وغير المنضبط بالحق وهدى الله عز وجل.

-﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾(النساء /148).

-﴿ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ﴾(الأنعام/ 112).

في حين مدح الذين (قولهم) طيبًا وجميلًا وخيرًا.

-﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾(إبراهيم /27).

-﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾(الحج/24).

-﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾(الزمر/18)

يدخل الأدب الإسلامي في دائرة القول الحسن والجميل وهو أحد أنماط الخير والفضيلة التي حدد معالمها الوحي، وحدد وظيفته العليا كذلك.

﴿ ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا﴾ (فصلت/33).

وعلى هذا الأساس فإن الخير بوصفه قوة إنسانية أصيلة من قوى الفطرة، يعد أحد القوى الخلاقة حين نحسن استثمارها وتوجيهها وبنائها.

وأول مستلزمات تأصيل قوة (الخير) هو وعي (الشر) وآلياته وأنماطه، ثم العمل على اجتثاثه حيث ما استوطن الإنسان والمجتمع وعطل طاقتهما الإنتاجية الخلاقة، وهنا يلعب الأدب الإسلامي دورًا مهمًا في إنجاز هذه المهمة، من خلال ما يطرحه من نماذج إنسانية تعيش الخير بأشكاله أو الشر بأشكاله، قاصدًا أحداث التوازن بين النفس الإنسانية والعالم الخارجي من أجل سعادة حقيقة تستلهم قوانين الله عز وجل في تحقيق الاطمئنان النفسي والاجتماعي.

إن وعي الخير بوصفه عنصرًا من عناصر الأدب الإسلامي يكون على درجة من الرقي والكفاءة والفعالية حين يستهدي بقوانين الخلق الإلهية-التي تؤكد على (وحدة الخلق) وبالتالي وحدة الإنسانية.

-﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾ (الأعراف/189).

- ﴿و هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع﴾ (الأنعام/98).

تتجلى وحدة الإنسانية في أرقى أشكالها فيما وهب الله عز وجل الإنسان من عقل وحرية وإرادة، ليكون حرًا إلى الحد اللازم لحمل مسؤوليته وقادرًا على الاختيار وفعل الخير.

هذا المبدأ هو السبب الذي يقف وراء الحقيقة الإلهية التي قررها القرآن الكريم:

﴿ يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ (الحجرات/13)

إن الانتماء إلى نوع (ذكر وأنثى) أو إلى قبيلة أو أمة ربما هو أوضح خصائص البشر وأيسر عوامل التعرف عليهم ثم تأتي بعد ذلك عوامل اللغة والملامح الوراثية والذكاء والمهارة والقوة البدنية، وهي أقل ثباتًا عند الميلاد وأكثر قبولًا

للتغيير، ثم تأتي الشخصية بخصائصها ذات القابلية العالية للتغيير والتي تكون الفضائل والرذائل من الحكمة والمعرفة والتقوى والصبر إلى الجهل والحمق والكفر والتمرد هذه كلها تشكل الشخصية الإنسانية وطريقة الحياة على الأقل من حيث الأساس والقاعدة. أما بقية عناصر بناء الشخصية ونمط الحياة وقيمها فيتكون من العادات والآراء ومن الميول والأمزجة، وغير ذلك من العوامل التي لها دور في بناء الفرد الإنساني وفي تحديد هويته.

وفي ظل هذا التصور للإنسان يكون الخير بالمنظور الإسلامي، أدق الفضائل في بناء الإنسان وأكثرها فعالية، في حين فشلت وستفشل الرؤى الإنسانية المحدودة للخير مادام مفهوم الإنسان عندهم ينحصر في الجانب العنصري لتحديد مطلق الإنسانية، وهو ما عليه معظم الفكر الأوربي والصهيوني بعامة، وأدبهما بخاصة، فالإنسان عندهم هو الأوربي أو الصهيوني، والإنسانية عندهم هي أوربا والصهاينة، وغيرهم مخلوقات قريبة من الإنسانية يمكن استغلالهم لصالح الإنسان الأوربي والصهيوني والإنسانية الأوربية والصهيونية. فأي خير يرتجى من هذه الرؤية ؟!

ثالثًا: وظيفة الأدب الإسلامي

لم يسقط الإسلام الشكل وجماليته من الاعتبار في صياغة نصوصه الإبداعية القرآن والسنة ويكفينا في البلاغة العربية دليلا على وحدة الوظيفة والجمال في الأدب الإسلامي.

إن الجمال في الإسلام مرتبط بالمنفعة والفائدة، ولهذا لم يشهد الإسلام بروز تيارات أدبية وقفت عند الشكل فقط، كما أنه لم يشهد أعمالا أدبية أهملت الشكل لصالح المضمون وحيثما اختل الشكل اختلت المعاني فاضطرب النسق الأدبي الإسلامي الجميل.

إن وحدة المعنى والصياغة تعد أهم خاصية للأدب الإسلامي، وفي ظل هذه الوحدة تحددت وظائف الأدب الإسلامي والتي يمكن أن نلخصها بالآتي:

1-الوظيفة العقائدية:

وتأتي في مقدمة الوظائف، ذلك أنه أدب ينبثق من أعماق العقيدة في رؤية الكون والإنسان والمجتمع، الأمر الذي يجعله أحد قوى تصحيح مسارات الإنسانية حين تنحرف عن الفطرة وهدى الله.

وتتمثل هذه الوظيفة في تقوية عنصر الإتباع لمعطيات العقيدة، والإبداع في ضوئها عبر مختلف عناصر الأدب –من خلال وعي العلاقة بين الإتباع والإبداع. التي تؤكد على عدم مخالفة الأطر الكلية للشريعة ومقاصدها، وأن يكون الإبداع متسقًا مع مصلحة الأمة، فلا إفساد ولا فساد ولا ضرر ولا ضرار، محققًا العدل متفقًا مع القسط ميسرًا للحق، دافعًا إلى أداء الواجب.

2-الوظيفة الجمالية:

إن الأدب الإسلامي أدب جمال منطلقًا ومنتهى، إنه قراءة جمالية للكون والإنسان تتجدد في ظلها قيم الحق والخير حسب منطلقات العقيدة.

إن القراءة الجمالية عبر الأدب الإسلامي للكون والإنسان لا تقتصر عند حدود الشكل فيسقط الأدب في مستنقع الشكلانية أو مبدأ الأدب للأدب أو الفن للفن بلا اعتبار للقيم وللإنسان وإنما تقرأ في الجمال مضامين قيم الحق والخير والمسؤولية والواجب والالتزام بالعدل والحقيقة، فيسمو الأدب الإسلامي بما يقدمه من جمال قيمي أو قيم جمالية تؤدي إلى وضوح الطريق وحسن الاختيار وجمال الفعل وسمو البناء الروحي والمادي.

3-الوظيفة الاجتماعية:

تشمل الدائرة الاجتماعية الإنسان، ثم تتسع لتشمل الدوائر الأخرى، وهي الأسرة ثم الوطن، ثم الأمة، ثم العالم.

إن أرقى درجات التوازن الاجتماعي تلك التي تنسجم في هذه الدوائر في حد أدنى من العلاقات الإنسانية النبيلة والقيم النبيلة التي تخدم الإنسان والعائلة والأمة بعيدًا عن أشكال التعصب العنصري.

ولما كان الأدب الإسلامي ينطلق من عقيدة تقوم على احترام الإنسان وتمجيده مادام ملتزمًا بالعدل والحق والحرية والجمال والمسئولية والتضامن، فإنه يعد

أكثر الآداب الإنسانية قدرة على الإسهام في البناء الاجتماعي الوطني والقومي والإنساني مادامت منطلقاته كونية تحترم الوطن، ووطنية تحترم العالم.

4-الوظيفة الأخلاقية:

إن الالتزام يمثل عمق هذه الوظيفة للأدب الإسلامي، فالأديب المسلم أديب ملتزم بالضرورة، ملتزم بالحق، ملتزم بالعدل، ملتزم بالحب، ملتزم بالمساواة، ملتزم بالتوحيد، ملتزم بالإخلاص... وفي كل هذا يحكمه (وحدة القول والعمل) ولذلك فإن الوظيفة الأخلاقية للأدب الإسلامي تعد من الخطورة بمكان بحيث تساهم في تنمية حس الالتزام والمسؤولية الأخلاقية والاجتماعية والحضارية عند الإنسان المسلم، ذلك أن حامل القيم – بالمنظور الإسلامي-سوف يسأل لماذا وفيما كتب؟ وإلى أيّة غاية يهدف؟

إن الأديب المسلم ملتزم بمنهج شامل في الحياة، يعبر عنه في القول والعمل ويتمثل في وحدته مع نفسه، وفي اندماجه مع أفراد مجتمعه وأي خلل في هذا الالتزام يعني الانهيار الذي لا يتسق مع الإسلام عقيدة وشريعة وحقيقة.

الفصـــل الثانـــي

أســس إسلامية الأدب

"شعر جيته أنموذجًا"

قضية الأدب الإسلامي هي مثل غيرها من القضايا، إنها قضية النفس الإنسانية في توقها للحرية والانعتاق والجمال والحب والفرح، وقضية اللغة التي تسعى إلى تشكيل العالم على وفق منظومة الحكمة الإلهية، وقضية الجمال الذي يعد أحد طرق الوصول إلى الله عز وجل ومعرفته، قضية القيمة التي تحدد الوزن النوعي لوجود الأشياء في الكون، وقضية المعيار الذي توزن به معطيات الجمال، وكذلك هي قضية الحقيقة في شكلها المطلق، وشكلها النسبي.

إن الأدب الإسلامي هو الأدب الذي يستبْطن جملة من المبادئ الأساسية التي تشكّل جوهر الإسلام، والتي تكوّن الإطار الجمالي للنص ونسيجه كذلك.

إنه الأدب الذي يطرح علاقة جديدة للوحي مع الحياة ألا وهي (علاقة الوحي بالجمال). لقد انشغل العقل الإسلامي عبر الأزمنة الإسلامية في ثنائية الوحي / العقل، وعلى الأدب الإسلامي أن يزجّ الإنسان في ثنائية جديدة هي الوحي / الجمال، الأمر الذي يستوْجب البحث في الأسس التي ينبغي أن يقف عليها الأدب الإسلامي وينطلق منها.

إننا نرى أن الأسس التي ينبغي أن يقف عليها الأدب الإسلامي هي[4]:

1-التوحيد:

إنه مبدأ الإسلام الأول ومنتهاه، فتوحيد الله (عزّ وجلّ) هو نبع الحق والخير والعدل والجمال، إن الكتابة في ضوء التوحيد تعني إعادة صياغة الإنسان والعالم على وفق ينابيع الجمال التي جعلها الله (عزّ وجلّ) طريقًا إليه، فيَسعد الإنسان تبعًا لذلك بما يحققه التوحيد من حرية وشجاعة في الانتصار على الرذيلة ودونية الإحساس والعار الإنساني.

إن الكتابة في ضوء التوحيد هي صناعة السمو الإنساني.

2-وحدة الخَلق:

الأدب الإسلامي هو أحد أشكال الإحساس بوحدة الخَلق، خَلق الكون والإنسان وهو أحد قوى تنمية الإحساس بتلك الوحدة، وهو أحد أدوات الوعي الإنساني إدراك علاقات الكون التي لا تنتهي إلا بالله (عزّ وجلّ)، وهو المحفز الحضاري للاجتهاد والجدية والمثابرة والحرية وعِشْق الحقيقة.

إنه الجُهد الجمالي الذي ينمّي الإحساس بجمال نظام العالم والحياة والإنسان، ويسعى إلى اكتشاف جمال البناء العضوي للحياة والإنسان في ميدان الحرية والحبّ والألم والوجد، إنه الجهد الجمالي الذي يكرّس مكانة الإنسان في الكون خليفة لله، ويقرأ هذا الوجود جماليًا ومعرفيًا.

3-وحدة الحقيقة:

يقوم الأدب الإسلامي على وحدة الحقيقة المستمدة من وحدة الله المطلقة، ووحدة الحقيقة مستمدة من وحدة (البديع) الذي هو أحد أسماء الله الحسنى الذي أضفى جمال إبداعه على العالم، وفي ضوء منطق العقل الإنسان، لا يمكن أن يكون تناقض بين الوحي والجمال، ذلك أن هذه الوحدة تقوم على المبادئ الآتية:

إن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أنه لا يوجد تناقض بين جمال الكون وجمال الوحي، فكل ما جاء به الوحي من جمال هو صادق وحقيقي ومنسجم مع الواقع وموافق له، إذ لا يصدر عن الجمال إلا الجمال.

إن وحدة الحقيقة المطلقة تفرض أنه لا يوجد تعارض أو تفاوت بين الوحي والجمال، فالبناء الجمالي للنص بحثًا في الوجود، أو إعادة اكتشاف له عبر اللغة، هو أحد أشكال الانسجام الجمالي مع الوحي.

إن وحدة الحقيقة المطلقة، وطبيعة قوانينها الجمالية، تفرض على الرؤى الإنسانية دوام اكتشاف الوجود، أي دوام الإبداع، وهي الوظيفة الأساسية للأدب الإسلامي، مثلما هي وظيفة الأدب بعامة، مع اختلاف النوايا والأهداف.

4-وحدة الحياة:

إن الأدب الإسلامي هو الجهد الجمالي الذي يجيب على سبب وجود الإنسان، ولما كان سبب وجود الإنسان – إسلاميًا – هو عبادة الله (عزّ وجلّ) ومحبّته، فإن الأدب الإسلامي هو الذي يكرّس البُعد الجمالي للعبادة والحبّ، الذي يتجلّى في شحذ قوى تأمل الكون والإنسان واكتشاف (زينته) التي أرادها الله (عزّ وجلّ) طريقًا للوصول إليه، ذلك أن وحدة الخلق والحق، تستوجب وحدة الحياة التي تقوم في إطار الأدب الإسلامي على وحدة الوحي والجمال، وحرّية الفعل الإنساني في إطار هذه العلاقة.

إن عنصرَيْ الحياة بالمنظور الإسلامي هما، الخلافة والأمانة، وكلاهما يستوجبان الحرية والإرادة، لأنهما القوتان اللتان تعينان العقل والرؤى على بناء الثقافة والحضارة.

إن الأدب الإسلامي – في ضوء هذا – هو القوة الجمالية التي تنبثق من حرية وإرادة واعيتَيْن بمسؤوليتهما الحضارية، والذي يمتلك رؤية شمولية للحياة، منبثقة من قوانين الوحي، وتسعى لتكريس جماليات (الواجب) الأخلاقي وتعرية ما هو نقيض له.

5-وحدة الإنسانية:

لأن الوحدانية، هي صفة لله (عزّ وجلّ)، فلابد أن تحكم صفة التوحيد الإلهي علاقة البشر بالله (عزّ وجلّ)، لأنهم جميعًا خلقه.

إن الأدب الإسلامي هو المنجز الجمالي الذي يرتّب علاقة البشر بالخالق من خلال القيم الوحدوية، كالحق والخير والجمال والحكمة، وليس من خلال اللون والعِرق، إن اختلاف السُّلالات البشرية هي آيات الله على بديع خلقه، وليست ميدان الاستعلاء والاحتقار، لهذا هدم الإسلام كل قيمة تفرّق بين البشر على أساس السُّلالة العِرقية واللونية واللغوية، وجعل معيار التفاوت العلم والإيمان والتقوى، لما تتضمنه من احترام للإنسان والحقيقة، إن الأدب الإسلامي هو صرخة الجمال ضد قبح العنصرية التي تنتهك أحد الأسس الإسلامية ألا وهو، وحدة الحياة.

إن وحدة الإنسانية هي حقيقة وجودية تقود إلى حوار من طراز خاص بين البشر بوصفهم أفرادًا، وبين المجتمعات بوصفها حضارات، غايته البحث في المشتركات الإنسانية، وتكريس قيم الحقيقة والجمال والخير والحق والحرية والعلم والمعرفة.

إن هذه الأسس والحقائق هي التي تشكل النص الإسلامي الجامع، الذي هو في ضوء تلك الأسس، مجموعة الرؤى الجمالية والأخلاقية والإنسانية التي يتوحد فيها الحوار، ويتحول فيها (النص / الوجود) إلى أشكال جمالية جديدة، تعزِّز قيم الجمال والجلال والحكمة وقيم الوحدة والتوحيد.

إن النصّ الإسلامي في ضوء تلك الحقائق كذلك هو نصّ (متناص) بالضرورة مع المصادر الإسلامية، ومعطياتها الجمالية، إنه نصّ نبْضه آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) إنه فعل نابع من تجربة الشاعر الروحية الحضارية. إن اختيار نصّ معين في الحبّ أو الألم أو الحكمة وإعادة كتابته في إطار المعاناة الروحية للشاعر، هو توسيع للنصّ الأصلي، وتعميق للتجربة الإنسانية وبالتالي هو توسيع للرؤية الحضارية.

الأنموذج التطبيقي:

لقد اخترنا (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي للشاعر الألماني الكبير "جيته" أنموذجا لدراسة "النصّ الأدبي الإسلامي" معتمدين (التناص) بوصفه أداة

نقدية لتحليل نصوص الديوان والوقوف على مضامينه الإسلامية، وكذلك الكشف عن مواطن التأثر بالنصوص الإسلامية وتمثلها.

لقد عبّر "جيته" عن وعي عميق بالمنجز الشعري العربي والإسلامي ويبدو ذلك واضحًا من خلال شروحه لقصائد ديوانه آنف الذكر، التي استعرض فيها مصادره الشعرية الإسلامية العربية والفارسية، فضلًا عن استيعابه للقرآن الكريم الذي كان حاضرًا في نصّه الشعري، شاهدًا على عمق حواره مع نصوصه وروحه، لقد كان القرآن الكريم، بوصفه النص المؤسس للإسلام، هو المحور الذي تأسست عليه إسلامية شعر (جيته) وهو الحبل الذي ربطه بالمنجز الشعري الإسلامي، وبالرموز العربية التي احتفظ الإسلام بقيمها النبيلة في الكرم والعطاء مثل (حاتم الطائي) الذي اختاره رمزًا لكرم مشاعر حبّه وتدفقها.

لقد كان الشعراء المسلمون الكبار مثل حافظ وسعدي والعطار وقيس وجميل، ثاني المصادر التي اغترف منها (جيته) رؤاه ليصوغ تجربته الشعرية، فجاءت عبقة بشذى الإسلام كما هي في القرآن الكريم، وكما تجلّت في مصادر الجمال الأخرى، أقصد الشعر.

ولقد اخترنا (التناص) لدراسة شعر (جيته)، والوقوف عند إسلاميته، كونه أحد الأدوات النقدية الرئيسة في الدراسات الأدبية، وتتحدّد وظيفته في تبيان الدعوى القائلة بأن كل نص يمكن قراءته على أساس أنه فضاء لتسرب واحد أو أكثر من النصوص وتحويله في نصوص أخرى [10] أو هو علاقة حضور متزامن بين نصين أو أكثر [12] لقد استوحى (جيته) القرآن والتاريخ والعقيدة والجمال الإسلامي فامتزج النصّ المؤسس (القرآن) بالرموز الحضارية الإسلامية، بالشعر الإسلامي، فكان النصّ (*الجيتوي*) امتدادًا لتاريخ الإسلام في انتصاره للحبّ والسلام والأمل الإنساني، وتحويلًا له كذلك ليمتزج برؤيته الشعرية، فكانت نصوصه فضاءً حضاريًا جماليًا، امتزج فيها الشرق بالغرب في فضاء الجمال ليعبر عن إمكانية صياغة عالم جديد يتوحد فيه الوحي بالعقل، بالجمال، بالروح، بالشعر، وهو الأمر الذي يبدو أنه لم يسغ للذين درسوا (التناص)

وصاغوا أبعاده في النظرية النقدية الغربية، لأنه ليس في وعيهم ولا في إرادتهم أن يكون للإسلام هذا الحضور الجمالي المضيء في الثقافة والأدب.

إن الديوان الشرقي لجيته هو (تناص) جمالي / حضاري، حوّل كثيرًا من النصوص الإسلامية إلى نصوص جديدة، امتزجت فيها الرؤى الذاتية بالموضوعية والخاص بالعام، والتاريخ بالمستقبل. لقد توزّع (التناص) عند جيته مع نصوص عدة، تناصه مع القرآن الكريم، وتناص مع الشعر الإسلامي في شقيه العربي والفارسي، وكذلك تأثر (جيته) بالرموز العربية الأصيلة التي لم تتناقض مع قيم الإسلام الأخلاقية، مثل حاتم الطائي. وتأثّر بالتاريخ الإسلامي لاسيما في أعظم لحظاته ألا وهي (الهجرة).

لقد ابتدأ (جيته) رحلة تفاعله وتأثّره بالإسلام، مع الهجرة النبوية من خلال "الهجرة الشعرية" إلى فضاءات الإسلام النقية والسعيدة، هجرة العقل والروح والرؤى إلى فضاء القرآن البهي. من أجل انبعاث جديد يعيد خلق نفسه والعالم على وفق قوانين الجمال الإلهية صانعة الحب والسلام.

لله المشرق

ولله المغرب

والشمال والجنوب

يستظلان بالسلام بين يديه. [11] لذلك لابد من الهجرة لتنعم بالسلام هناك،

سلام الروح والجسد والعقل والجمال.

الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر.

والعروش تثل والممالك تتزعزع وتضطرب.

فلتهاجر إذن إلى الشرق الطاهر الصافي.

كي تستروح جو الهداة والمرسلين.

هنالك – حيث الحبّ والشرب والغناء.

سيعيدك ينبوع الخضر شابًا من جديد.

إلى هناك حيث الطهر والحق والصفاء.

أود أن أقود الأجناس البشرية. [11].

إن "الهجرة" إذن هي لحظة الدفاع عن الحرية. والحرية هي إحدى أهم رموز الكرامة الإنسانية، وإحدى مسوغات الوجود الإنساني، لقد تمكّن (جيته) من تحويل قضية الشعر في سورة الشعراء إلى قضية التوازن بين الشعور والعقيدة، في قصيدته (شكوى) التي انشغلت بهمّ التوازن بين الشعر والعقيدة، وبالتالي تحديد الموقف من الشاعر الحرّ الملتزم بالعقيدة الذي يصنع بالتزامه مقومات جدوى الحياة وأهميتها.

أتدري لمن يقوم الشيطان بالمرصاد.

في الفيافي بين الصخور والأسوار؟

وكيف يجيل فيهم النظرات الحداد.

مقتادًا إياهم إلى أبواب النار؟

إن هؤلاء هم الكذابون الأشرار.

والشاعر، لماذا إذن لا يرتاع؟

من الدخول في زمرة هؤلاء الرعاع.

فهل يعرف إذن من يرافق ويصاحب.

هذا الذي لا يعمل إلا في حال من الجنون غالب؟

والناس سيتركون قصيده يذهب حيث شاء.

لأنها لا تتفق والقرآن.

فعلموا الناس إذن أيها الراسخون في العلم.

والمتدثرون بدثار الحكمة.

علموا المسلمين المخلصين واجبهم المتين [11].

في هذه القصيدة تناص مع آيات من سورة الشعراء:﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأكثرهُمْ كَاذِبُونَ(223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوونَ(224) أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾(الشعراء / 221-225).

*****

والحبّ كذلك هو أحد مسوّغات الوجود الإنساني، إنه كتاب النفس الإنسانية وفعلها الجمالي الخلاق .

يحدد (جيته) فضاء حبّه في أجواء العشق الإسلامية ومراتبه المتعددة بدءًا من حبّ الرجل للمرأة، وانتهاء بحبّ الإنسان لله (عزّ وجلّ)..فيقدم "تناصًا" مع حبّ يوسف وزليخا ، وشيرين لفرهاد ، وقيس لليلى ، وجميل لبثينة ، وسليمان الحكيم لبلقيس.

إن القانون الذي يجمع هذا الألق الإنساني النبيل هو (العفة)، وهي القيمة الإسلامية النبيلة التي لا تمنع الحبّ، وإنما تنظم تدفقه النقي، فتفجر ينابيعه الخلاقة في الوقت الذي تحدّ من الإشباع الحسي والتمادي في الرغبة.

حبّ زليخا ليوسف، أنموذج لهذا الحبّ الذي حكمته القيمة الأخلاقية فامتنع يوسف عن الوصال، وفر هاربًا من عنف اللحظة.

إن الحبّ عند (جيته) نعمة كبرى.

أجل، إن الحب لنعمة كبرى
فمن ذا يجد كسبًا أجمل منه.
نعم لن تكون أقوى ولا أغنى
ولكنك ستكون مثيلًا لبطل الأبطال [11].

والبطولة هنا هي جهاد الرغبة في لحظة احتراقها. وهو ما عليه العشاق العذريون، الذين يفخر جيته بانتمائه لهم. ولذلك اختار له اسمًا يعبر عن كرم الروح وكرم أخلاقها النبيلة في هذا الحبّ.

ولما كنت منذ الآن ستدعني زليخا
فلا بد لي أنا أيضا من اسم
حين تتغنين بحبيبك
حاتم! هكذا ينبغي أن يكون اسمه. [11]

****

رُسُل الحبّ تظل واحدة من مشاغل العشاق عبر التاريخ ، إنهم يحتاجون إلى طرف يديم التواصل حين يبدو (الفراق) في أفق العشق متهيئًا لكتابة سفر السقم والمرارة ، ولذلك يقول (جيته) :

إن أعجب الأسفار سفر الحبّ.
لقد قرأته بكل إمعان واهتمام.
قليل من صفحاته تتحدث عن سرور العين.
ومصاحف بأسرها تفيض بالأسقام [11]

ذلك لأن الفراق هو الصفة الأكثر ملازمة للمحبين، ولأن الفراق هو الذي يكتب سر الأحزان، فمن ذا الذي يكشف عن هذا السر ليتلاقى العشاق من جديد؟!

ربما هو الرسول الذي يكشف عن ذلك السوء، ولكن أي رسول؟ !

رأى (جيته) أن (الهدهد) هو رسول حبّ جديد. محولًا الهدهد في سورة النمل، إلى رسول جديد.

لقد تحول الهدهد –عند جيته–إلى رسول حبّ جديد يحمل النبأ السعيد الذي رأى فيه ضوء الأمل في قصيدة تحية:

آه ما أسعد جسدي
في بلاد الهدهد
سرت عن موقع بحر
باحثًا في كل صخر
فأتى الهدهد قربي
ناشرًا تاجًا بهدب،

وعلى الميت المسجى

كل حي قد نجى

قلت يا هدهد، ويكَ

أطائر للحسن أحكي

فسراعًا اذهبَّن

لحبيبي واعلنن

كل حبي أبدا

وغرامي المخلدا

كن رسولًا بالنبأ

مثلما في الحقب

بين بلقيس سبأ

وسليمان النبي. [11]

*****

التفكير هو ابن العقل الفعال، هو حقيقة الإنسان الخلاق المتفردة، مثلما هو أحد معالم الإسلام الكبرى، لقد كان التفكير سفرًا شعريًا رائعًا عند (جيته) معبرًا عن حكمة الحياة وجمالها مستلهمًا عناصر هذه الحكمة من روح الإسلام التي رسمت معالم الشرق الإسلامي وملامحه الجميلة.

ففي قصيدة "خمسة أشياء" يصوغ (جيته) ما يؤكد أن القلب الصفيق أيًا كان صاحبه لا يعرف الصداقة، ولن يعرف اللئام الأدب، ولن ينال مجدًا من كان سيء الخلق، ولن يفلح حسود:

خمسة أشياء لا تلد خمسًا

فأرع سمعك لهذا المذهب

القلب الضعيف لا ينبت الصديق

أبناء الوضاعة سوء الأدب عندهم بضاعة

لا يبلغ السوء مهما علا أي علا

الحسود لا يرحم المفقود

الكاذب الميّان ينشد عبثًا الإيمان

احفظ هذا عني ولا تدع أحدًا يسلبك إياه. [11]

أما في الخمسة الأخرى فإنه يشيّد بالقيم العملية أولًا لأنها سر التقدم والسعادة، ويدعو إلى نبذ البطالة، فهي مصنع الكآبة، ويبين أن المثابرة والتساهل يجلبان الخطايا حين لا يكونان للحق ومن الحق. ويأتي الكسب من سرعة التفكير ودقته، أما النخوة والمروءة فهما معراجا الإنسان إلى الشرف والكرامة.

إنها تأثّر وتفاعل مع قيم الإسلام العملية الداعية إلى العمل الذي ترهن به نفوس البشر يوم الحساب. والصداقة بوصفها قيمة إنسانية عليا، لها في شعر (جيته) نصيب، لقد بنى صداقته على قيم القرآن الكريم، ففي قصيدة موجهة إلى الكونت جينسناو اكستيل هناك اقتباس من قوله تعالى: ﴿ وَإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أو رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ (النساء / 86) .

وأول التحية ذو قيمة سنية

فبادل التحية من يبدأ التحية [11]

لقد عشق (جيته) القرآن الكريم، وكان لهذا العشق أثر في البنية الشعرية لديوانه، لقد أدرك أن القرآن الكريم هو صانع سعادة النفس الإنسانية وباقي بصيرتها، وقائد فعلها إلى الخير والكمال. لقد أدرك أن فهم القرآن واستيعابه والتفكر فيه هو المطلب الأساسي:

قديمًا حين كان المرء يستشهد بالقرآن الكريم

كان يذكر اسم السورة والآية

فكان كل مسلم، كما هو الواجب

يشعر براحة الضمير والهيبة والطمأنينة

ولا يستطيع الدراويش المحدثون أن يفعلوا خيرًا من هذا

إنهم يثرثرون عن القديم، ويصنعون الجديد

فيزداد التشويش كل يوم

أيها القرآن الكريم، أيتها الطمأنينة الخالدة. [11]

في هذا النصّ الذي يشير إلى أهمية القرآن في بناء الوعي الإسلامي، هناك تمثل آيات التدبّر والتفكّر في القرآن الكريم .. ذلك أن القرآن يحقق الطمأنينة واليقين حين نحسن تدبره.

لذلك لم يهتم (جيته) بالنقاشات التي دارت حول القرآن الكريم، هل هو قديم أم مخلوق؟! بل استلهم حكمة القرآن ونصوصه العظيمة التي أعادت هندسة العالم على وفق قيم الحق والخير والجمال كما أرادها الله (عزّ وجلّ) للبشرية .

هل القرآن قديم؟
هذا أمر لا أسال عنه.
هل القرآن مخلوق
لست أدرى
أما إنه كتاب الكتب،
فهذا ما أؤيده، كما هو فرض على كل مسلم [11].

والقرآن بالمنظور الصوفي هو مصدر سكر الروح، هو خمرها العذب، لهذا انشغل (جيته) بسكر الروح في حضرة الجمال الإلهي، في لحظة خلق شعري جديد، متناصًا مع حافظ وخمرته وهو يضع قوانين السكر في حضرة الحبيب:

طالما كان المرء في صحو
اغتبط بالسوء
وإذا شرب
عرف الخير
لكن سرعان
ما يكون ثمة إفراط
إي حافظ
خبرني كيف فهمت هذا.

لأن رأسي

لا مبالغة فيه

من لا يعرف الشراب

ينبغي أنْ لا يعشق

أما أنتم أيها الشاربون

فلا تحسبوا أنفسكم بهذا أفضل

إذا لم يعرف المرء كيف يحب

ينبغي عليه أنْ لا يشرب [11].

*****

وللنبوة حضورها في الحياة الإنسانية، فهي ضوء الخلاص على وفق هدى الله (عزّ وجلّ)، وللنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) حضوره المتميز في تاريخ النبوة، فهو مهندس العالم الجديد، رباني سلامه وخلاصه، هو خلاصة حكمة الأديان السماوية، وبداية عصر العقل الممزوج بشريعة الله.

ولعمق تأثير الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وحضوره وقوته في العالم، جيشت ضده الجيوش، جيوش الحقد وعملوا على إحباطه وإحباط رسالته بوسائل شتى، ظانّين أن الله لن ينصره.

لقد خلد القرآن الكريم هذا النمط من المواجهة مع النبي في سورة الحج (الآية 15) بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ .

لقد كابد (جيته) حب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، مستلهما قول الله (عزّ وجلّ) آنف الذكر، في قصيدة النبي:

إذا اغتاظ أحد من أن الله

شاء أن يهب محمدا الأمن والسعادة

فليربط حبلًا متينًا بأقوى الأعمدة

في قاعة بيته

وليشنق نفسه به، فهذا مفيد له

إذ سيشعر حينذاك بأن غيظه سيذهب عنه [11].

*****

وفي كتاب (الخلد)-من الديوان الشرقي -يظهر استلهام القيم الإسلامية التي تحقق إسلامية النفس ومعرفتها بالعالم. ففي قصيدة: "سبق مذاق"-على سبيل المثال -حضور لآيات أجواء الآخرة، الجنة والجحيم:

المسلم الحق يتحدث عن الفردوس

كما لو كان هو نفسه هناك

ويؤمن بالقرآن وما يعد به

وعلى هذا الأساس تقوم العقيدة الطاهرة

والنبي، الذي أنزل عليه هذا الكتاب

يعرف نقائصنا ويكشفها في الأعالي

ويرى أنه على الرغم من رعود اللعنات

فكثيرًا ما تأتي الشكوك لتسمم الإيمان

ولهذا يرسل النبأ من عليم

أعجوبة شباب لتجديد شباب كل شيء

تنزل برقة وفي الحال

تعانق رقبتي وتربطها بألطف الروابط

وفي حجري، وعلى قلبي أضم

هذه المخلوقة السماوية، ولا أريد المزيد

ومن هنا أؤمن بالفردوس إيمانًا راسخًا

لأني أريد أن أقبلها إلى الأبد بإخلاص[11]

إنه سحر الجنة، وحورياتها، وخمرها، اللذة التي لا تنضب، إنها أماني النفس الإسلامية التي تحلم بالانغمار في أنهار لذة الجنة الخالدة.

في قصيدة "ناس ممتازون" ص307، تناصات مركبة مع سورة الواقعة والرحمن والنجم، حيث معاني الجهاد والجنة وحقيقة الانتصار الإسلامي، تتمحور كلها حول أعظم لحظة تاريخية في حياة الإسلام (معركة بدر)، إذ يتكلم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد المعركة تحت السماء المرصعة بالنجوم.

ليبك الأعداء موتاهم

فقد جندلوا إلى غير رجعة

أما أنتم فلا تبكوا إخواننا

لأنهم يطوفون وراء هذه الأفلاك

والكواكب السبعة كلها

وأبوابها المعدنية مفتوحة على اتساعها

وأحبابنا المجدون ها هم يقرعون

أبواب الفردوس بجسارة

ويجدون هناك، دون توقع

ألوان البهاء، التي لم يسمع بها، والتي يمسها معراجي

حين يحملني الفرس العجيب في لحظة

خلال السماوات[11]

للشهادة حضورها في تناصات (جيته) مثلما للشهادة مكانتها في الشريعة الإسلامية. في قصيدته (السماح بالدخول) تناص مع آيات الشهادة في القرآن الكريم، فالحورية تقف على باب الجنة تسأل الداخلين إن كانوا قد استشهدوا، وتطلب أن يروها مواضع الجراح، دليلًا على الشهادة، والتناص في القصيدة لا يقف عند حدود الجهاد والحرب بل يمتد إلى جهاد آخر هو جهاد النفس ضد غرائز الشر، عبر التزكية ، والانتماء إلى الله (صلى الله عليه وسلم)، فإذا كانت الحورية في المقطع الأول تطالب الداخل بالجراح أثرًا على الجهاد ، فإن (جيته) في المقطع الثاني يطرح على لسان الشاعر الذي يطالب هو الآخر بدخول الجنة بوصفه بطلًا ومحاربًا من طراز آخر، إنه بطل الجهاد الأكبر في معركة الحياة ضد

مغرياتها وسعيًا لكسب ما هو ضروري لها. إنه بطل الإخلاص في الحبّ، بطل تزكية النفس التي تقود إلى الفلاح، والفلاح مدخله الجنة:

دعيك من كل هذه المماحكات
واسمحي لي بالدخول
لأني كنت رجلًا
ومعنى هذا إني كنت محاربًا
احدَّي بصرك القوي
وانفذي هنا أعماق قلبي
انظري خساسة جراح الحياة
انظري شهوة جراح الحبّ
ومع ذلك فقد غنيت غناء الزمن الصادق
فقلت إن حبيبتي أخلصت لي
وان العالم مهما تدور به الأحوال
كان مليئا بالحب وعرفان الجميل[11]

في قصيدة أهل الكهف تناص مع سورة الكهف، تتحول أجواء القصة إلى عالم معين. أهله مثل أهل الكهف ينامون بلا وعي. فيتمثل (جيته) دور المصطفى في إنقاذ العالم الذي بات كهفًا مسدودًا يضم رفات الوعي والأخلاق. في حين يذهب الذين رقدوا فيه إلى الجنة. لأنهم آمنوا بالله حق الإيمان.

ستة من المقربين في القصر
يهربون من غضب الإمبراطور
الذي يريد أن يعبده الناس كإله،
لكنه لا يكشف عن نفسه إلهًا:
لأن بعوضة تمنعه
من الاستمتاع بأطايب المائدة.

وخدمه يطيِّرون البعوضة بتحريك المروحة
لكنهم لا يستطيعون طردها.
إنها تطنّ حواليه، وتلسعه، وتحوِّم
وتعكر كل المأدبة،
ثم تعود من جديد
كرسول بعثه إله الحشرات الشرير.
فقال الخدم: ماذا!
أتستطيع ذبابة صغيرة أن تضايق إلهًا؟
وهل يشرب الإله ويأكل
مثلنا نحن؟ كلا إن الواحد الذي خلق الشمس والقمر ودَوَّر فوقنا قبة السماء ذات النجوم
هذا هو الله، فلنهرب! - والفتية
اللِّطاف، ذوو الخفاف الخفيفة والزينة الرقيقة
آواهم راع خبأهم
هم وهو معهم في كهف صخري
ولم يشأ كلب الراعي أن يذهب،
:
سد عليهم باب الكهف
لكنهم ينامون باستمرار
والمَلَك الذي يرعاهم،
يقول في تقريره أمام عرش الله
"لقد قلبتهم ذات اليمين وذات الشمال
حتى لا تضار أعضاؤهم الرقيقة
بما ينبعث من هذه الحُماة.
وفتحت شقوقًا في الصخور

حتى تجدد الشمس؛ في طلوعها وغروبها،
الألوان النظرة لخدودهم:
وهكذا يرقدون في نعيم.
والكلب الغير، مستندًا إلى قدميه الأماميتين وقد شُفيتا
ينام نوما هادئًا.
وتمر الأعوام، وتأتي السنون،
وأخيرًا يستيقظ الفتية؛
والجدار، وقد قرضه الزمان،
تهدم من القِدَم.
وقال يامبليخوس الجميل
وهو خيرهم علمًا وتربية،
وقد شاهد الراعي خائفًا
"سأعود! وسآتيكم بطعام
وسأخاطر بحياتي وبقطعة الذهب!"
:
وجرى مسرعًا، لكن الباب،
والأسوار والبرج وكل شيء كان قد تغيّر
كأنه أسرع إلى أقرب خباز
وطلب خبزًا وهو في لهفة.
فصاح الخباز "أيها الوغد!
هل وجدت، أيها الفتى، كنزًا؟
إن هذه القطعة من الذهب تفضح أمرك
أعطني، قاسمني إياه ونتفاهم!"
وتنازعا، وأمام الملك
عرضت القضية: والملك هو الآخر

لا يريد إلا أن يقاسمه مثل الخباز
هنالك تكشف المعجزة
شيئا فشيئا بآلاف العلامات.
والفتى يستطيع أن يقرر حقه في القصر
الذي بناه بنفسه،
لأن عمودًا، شُقَّ،
أفضى إلى كنوز نقشت فيها أسماء محددة،
وفي الحال تجمعت أسر
لتقدم دليلًا على قرابتها،
:
وأحاطت به جماعة ذريته
وهم صفوة من كرام القوم
ليكرموه وهو أكثرهم شبابًا
وجاءت علامة بعد أخرى،
تتدافع لتتم البرهان
بالنسبة إليه وإلى أصحابه
فقد استعاد شخصيته.
ثم عاد إلى الكهف
يصحبه الشعب والملك
ومصطفى أسماء هذا
لا يلتفت إلى الملك ولا إلى الشعب:
لأن السبعة (وكانوا ثمانية إذا حسبنا الكلب)
قد انسحبوا من العالم منذ زمان طويل.
وقوة جبريل السرية
حملتهم إلى الجنة

حسب مشيئة الله

وبدا الكهف مسدودا [11].

الفصل الثالث

الخطاب الاقتصادي في القصة القرآنية وأبعاده الجمالية

يشتمل البعد الجمالي بعامة على الشعور بالجمال، وما يبعثه في النفس الإنسانية من فرح وحيوية ومنفعة وسمو أخلاقي، والشعور بالجمال هو نتاج الوعي الجمالي بما يحيطنا من أشياء، وبما يدهشنا من أحداث.

إن البعد الجمالي في القصة القرآنية، طريق للمعرفة والإيمان والوعي بالكون وخالقه، والوعي بالمجتمع وأهميته، والوعي بالإنسان ومكانته.

يزجّنا البعد الجمالي في القصة القرآنية في الحياة مباشرة في إطار المعادلة الإلهية الخلاقة: من الوحي إلى الحياة، في إطار رؤية كونية منسجمة مدهشة وجميلة.

ويتجلى البعد الجمالي في القصة القرآنية، كذلك، في دفع الإنسان إلى السير في درب الحق والحقيقة، كون هذين العنصرين يشكلان أحد أهم ينابيع الجمال.

يعمل البعد الجمالي في القصة القرآنية على جعل الدين قوة جمالية فاعلة في الوجود، تمنحنا الحرية المسؤولة التي تعيننا على إنجاز الانسجام مع الطبيعة، وترسم لنا حدود الإلهي والبشري، وتحدد جماليات السمو الإنساني نحو الله تعالى، فالجمال الذي يصنعه الدين، جمال صاف، يتمثل صفاؤه في توجيه الحكم للإنسان بحيادية إلهية.

والبعد الجمالي في القصة القرآنية هو تنظيم للمشاعر الإنسانية وخواطرها وأفكارها، يخلصها من أسْر الرغبات التي تلغي إنسانية الإنسان حين يسعى لاهثًا وراء لذّات الحياة المختلفة معتقدًا أن جمال الوجود يكون بها.

يتوحد في القصة القرآنية، الزمان والمكان والأشخاص والقيم والرؤى من أجل وظيفة سامية، هي الدخول عبر الجمال إلى منظومة القيم وامتلاك القدرات البنائية في حقول الحياة كافة. ذلك أن الجمال في القرآن الكريم عامة، وقصصه خاصة، يضعنا أمام حقيقة أنه أكبر من أن تحدّه قاعدة جمالية، أو يخضع لمواصفات معينة، إنما القواعد الجمالية تخضع لمعطياته وقوانينه، وبقدر استيعابها له وانسجامها معه، تستحق أن تكون معايير جمالية تُفسر بها ظواهر الوجود.

وبغية الكشف عن هذا البعد الجمالي في القصة القرآنية، اخترنا القصص ذات الأبعاد الاقتصادية، لغياب دراستها في إطار وحدة الجمال والاقتصاد، نظرنا إليها بوصفها سردًا من زاويتين، الأولى بوصفها حكاية، والثانية بوصفها خطابًا. فمن حيث كونها حكاية كان التركيز على الوظيفة والفعل والسرد، وبوصفها خطابًا كان التركيز على الزمن والصيغة، فالقصة القرآنية ذات البعد الاقتصادي هي (حكي) جمالي و(خطاب) اقتصادي، ذلك أنه ثمة علاقة بين الجمال والاقتصاد، من حيث قدرتهما على إعادة تشكيل الحياة على أرضية السعادة، الجمال بالكلمة واللون والكتلة والصوت والحركة، والاقتصاد بالعدالة بما تفرزه من قيم أخلاقية سامية، وبما يلتقيان به من أهداف تنتهي عند الإنسان، بوصفه الغاية العظمى للجمال والاقتصاد.

تتجلى هذه الوحدة بشكل واضح في القرآن الكريم، كونه نسيج الجمال الإلهي الخلاّق، ومهندس البناء الاقتصادي المتين والكفوء والفعال، لينتج في ميدان الاقتصاد رؤية أدبية صبغتها الجمال والعدالة.

ننطلق في ضوء هذه الرؤى للكشف عن البعد الجمالي في القصص ذات الأبعاد الاقتصادية، ومن الجدير بالذكر أن الاقتصاد، هنا، ليس المقصود به ذلك العلم

الذي يقوم على النظريات الغربية في تفسير الظاهرة الاقتصادية والسلوك الاقتصادي- دون إغفالها- إنما هو الاقتصاد القائم على الرؤية الكونية القرآنية، الذي هو اقتصاد الشكر المعنوي، وتوقير الرحمة الإلهية الكامنة في النعم، والإحسان الذي هو سبب حاسم للبركة والاستكثار، والوسيلة القوية لإحساس ما في النعم والآلاء من لذة، والسبب المتين لتذوق اللذائذ المخبأة في ثنايا نِعَم تبدو غير لذيذة، المخالف للإسراف، الاقتصاد المخالف للحِكم آنفة الذكر[26] .

وبناء على ما تقدّم سيعالج الفصل موضوعه عبر المبحثين الآتيين:

الأول: في مفهوم الجمال والجمالية.

الثاني: جماليات البعد الاقتصادي في القصة القرآنية.

★المبحث الأول: في مفهوم الجمال والجمالية:

يختلف الجمال في المنظور الفلسفي عنه في المنظور البلاغي، فالجمال في المنظور الأول لا يلتفت إلى جمال الكلمة، بقدر اهتمامه بالانسجام الفكري فيها، وأن الفلسفة جميلة لأنها مبهجة النتائج التي تقطفها من درس الحقيقة، وهذا الدرس الجميل دلالة على أن كل حقيقة جميلة، وأن الحق جميل. هذا الحكم الفلسفي هو تمَثُّل الفكر، وهو تجريدي نتوصل إليه من مُشخِصات الحواس في شعورها بالجمال[25].

يتناول الجمال بالمنظور الفلسفي موضوعه بطريقةٍ كلية، ذلك أنه من نافل القول أن الطابع الكلي هو ما تعالجه الفلسفة مهما اختلفت زوايا النظر منها وإليها، سواء الذين ينظرون إلى الفلسفة بوصفها الأسئلة الكبرى التي طرحها الإنسان على الوجود مثل ما الحقيقة ؟ ما الحق ؟ ما اليقين ؟ وما إلى ذلك، أو

الذين يجدون فيها البرنامج العقلي لبناء الإنسان الجديد، الذين ينظرون إليها على أنــها نظام عقدي هو ضروري للإنسان[2].

أما الجمال في منظوره البلاغي، فيركز على جمال الكلمة وسياقاتها التي يضمها ما يعرف بـــ (النظم) الذي كان ميدان دراسات الإعجاز القرآني وجمال هذا الإعجاز المدهش المعجز، الذي يشبه عقارب الساعة العادّة للثواني والدقائق والساعات، والتي تكمل كل منها نظام الآخر، كذلك النظم في هيئات كل جملة، من جمل القرآن، والنظام الذي في كلماته، والانتظام الذي في مناسبة الجمل، كلٌ تجاه الآخر. وكذلك فإن القيمة الجمالية في الحقل البلاغي بوصفه فنًا، لا فيما يقوله في حد ذاته، ولكن في طريقة القول[23].

في كلا المنظوريْن فإن الحاجة الجمالية تُعد أحد ضرورات الوجود الإنساني، ذلك أن الجمال بكل أقسامه إنما هو طريق إلى الحق والحقيقة والخير والحبّ. وكلا المنظوريْن ثاوييْن في القرآن الكريم، في القصص وغير القصص.

يظل الجمال مبحثًا إنسانيًا وحضاريًا مهمًا مادام الإنسان يتطلع إلى السعادة والسلام والحق، على الرغم من طغيان الرؤى الأدبية عليه. وكأن لا جمال خارج الأدب، غير أن المباحث الجمالية المعاصرة لم تُعد تقتصر على حضور الجمال في الأدب، إنما انطلقت للبحث عنه في عناصر الوجود الأخرى، الصوت، والعمارة، والطبيعة، مؤكدة أن الحاجة الجمالية متنوعة وعميقة وشاملة لعناصر الحياة كافةً المادية وغير المادية، إنها الحافز أو القوة الجاذبة التي تدفعنا إلى أن نزور متحفًا للآثار أو الفن الحديث، أو نذهب لشراء أسطوانة موسيقية أو لشراء ديوان شعر وما إلى ذلك. [15]

لم يكن الجمال في القرآن الكريم بحثًا نظريًا، إنما هو ضرورة وجودية تنساب مع الأحكام، لتستفزّ العقول والنفوس محدثة تغييرًا شاملًا في الرؤية والفعل، إنه يخاطب (الحاجة الجمالية) الثاوية في أعماق النفس الإنسانية، فيستفزّها ليأخذها إلى التغيير والبناء، ويصنع وعيًا جماليًا بالوجود تؤدي بالتالي إلى إعادة صياغة مستلزماته الحضارية الخلاقة. فجمال القرآن هو مقاربة، ووحدة قِيم

ورؤية في الذوق والاعتقاد، فهو مقاربة بمعنى التعامل بلا واسطة مع صريح لفظ الجمال في القرآن الكريم ومعارض وروده، فهو على سبيل المثال يصف مباشرة مظاهر تنعّم بنعمة مسداة، كالأنعام في الرواح والسراح، وفيما هو خُلق نفسي في الصبر والصفح، فضلًا عن كونه معاملة مترقية حتى في تسريح النساء وفي هجر المؤذين[18].

قال تعالى:﴿ فاصبر صبرًا جميلًا ﴾(المعارج/5)

﴿ وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ﴾(الحجر/85)

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم والله المستعان ﴾(يوسف/18)

﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا ﴾(المزمل/10)

﴿ فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلًا ﴾(الاحزاب/28)

يبدو هذا كذلك في القصص القرآنية ذات الأبعاد الاقتصادية، وبُغية الكشف عن هذه الأبعاد، نوضح المضامين الاقتصادية في تلك القصص ودلالاتها ومواطن الجمال فيها، وهو ما يشكّل اهتمام المبحث الثاني.﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ (هود/120).

★المبحث الثاني: جماليات البعد الاقتصادي في القصص القرآنية :

تتجاوز الجمالية مفهوم الجمال، فهي لا تشير إلى الجميل وحسب، ولا إلى حقل فلسفي وعلمي أو بلاغي محدد، وإنما ترتقي بالوعي الجمالي إلى إدراك التلاؤم بين شكل النص ووظيفته ومنفعته وفائدته وقدرته على تحقيق الراحة والرفاه، بشرط أن تتلاءم وحدة البناء ووحدة التزيين، أو كما يقرر علماء الجمال، أن هناك تداخلًا بين الوظائف الجمالية والنفعية للفن حين يكون إدراك وظيفة الموضوع ممتزجًا بالاستجابة الجمالية[1] ليس هذا وحسب، إنما يكمن مدار

اهتمام أي دراسة جمالية في قدرتها على كشف كيف يتم هذا العرض للحقيقة بطريقة معينة دون سواها[19].

*رجل الدهشة والقرية الخاوية .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(البقرة/259).

قرية/بلد مدمرة، خاوية على عروشها، كنخلة ميتة، فيها كل معوقات الحياة، تبعث على اليأس.

تأتي القرية في القرآن الكريم بوصفها مكانًا لتجمع الناس، وتأتي أحيانًا بمعنى المدينة بكل تكويناتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية لتعبر عن وظائف متعددة تذكيرية كما في قصة يونس عليه السلام، وتعليمية كما في قصة أصحاب القرية، أو الرسل الثلاثة في سورة ياسين[17]

في قصة الرجل الذي مرّ على القرية الخاوية، تثير القرية وتستفزّ وظيفة الدهشة:

وقف الرجل أمامها يائسًا من إمكانية بعث الحياة فيها، ومنكرًا لها حين تساءل مستبعدًا إمكانية الإحياء والبعث من جديد؛ (أنى يحيي هذه الله بعد موتها)، فقدم المفعول به على الفاعل دلالة على انشغاله بالقرية الخاوية أكثر من إمكانية البعث والانتباه إلى قدرة الله (عزّ وجلّ).

فكانت التجربة العملية -التي كثيرًا ما تتكرر في القرآن الكريم -منهجًا في الوصول إلى اليقين والحق. وهنا التجربة هي: إماتة الله تعالى للرجل مائة عام، ثم بعَثـه، فسأله الله تعالى عن مدة لبثه في مقامه الميؤوس منه. تصورَ أن الأمر لا يعدو أن يكون غفوة يوم أو ليلة، غير أنه صُعق عندما تبين له أنه، حقًّا، قد لبث

مائة عام، فالإخبار صحيح، لأن فعل المخبر عياني حقيقي، حين رأى عودة الحياة إلى حماره الذي بدأ يتشكل أمامه من عظام نخرة.

* أيقن الرجل أن الله على كل شيء قدير.

تبدو جمالية القصة في هذه المقابلات المتعددة:

القرية الخاوية على عروشها مع النخلة الخاوية على عروشها.

الحوار مع الذات، أنّى يُحيي هذه الله.

الحوار مع الله تعالى، يسأله الله عزّ وجلّ كم لبثتَ، فيجيبه يومًا أو بعض يوم.

عودة الحياة إلى حماره، والحفاظ على طعامه/اليقين ببعث هذه القرية.

إن بعث الحياة بأشكالها المتعددة الاقتصادية وغير الاقتصادية، أمر مرهون بقدرة الله تعالى، مع قدرة البشر على تطوير إمكاناتها المتعددة.

إن أزمة الاقتصادات الوضعية الكبرى، هي في عدم الانتباه إلى قدرة الله تعالى على التدخل – كما يشاء ووقت ما يشاء – في حركة الحياة، وإلى علمه الذي هو منهج في بناء العالم، كما هو دليل السعادة.

* هود وإعمار الارض:

* ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ

رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (57) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) ﴾ (هود/50-58)

*﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (71) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72) ﴾ (هود/65-72)

- يتمركز الحس الجمالي والحضاري عند هود عليه السلام في عمارة الأرض، وهو الوجه الثاني لدعوته مع التوحيد.

- أغرت قومه سيادتـهم السياسية والاقتصادية، وتركز الثروة بأيديهم، ليصبحوا مصادر القوة التي لا تحتمل أن ينازعها أحد، فنسوا الله، تخلوا عن التوحيد، صارت سلطتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هي مصدر تشريعهم وقوتـهم. إن هذا يعني خلل التوازن في المجتمع وسيادة المادة ومعطياتها، فضاع أهم مظهر من مظاهر الجمال، ألا وهو التناظر بين عناصر الوجود المادية والروحية.

لقد سعى هود (عليه السلام) إلى إعادة هذا التوازن عبر وحدة التوحيد والاقتصاد ومظاهر قوة وحدتـهما المتجلية في (إعمار الأرض)، فرفض القوم هذا المنهج، وطالبوه بالدليل على صدق دعوته، لكنهم رفضوا أدلّته، فوقع عليهم الرجس والغضب فسقطوا في وحْل القبح.

⁕صالح والعدالة:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آَمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللهَّ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآَيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أكثرهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159) ﴾ (الشعراء/ 141-159)

- أراد الله تعالى اختبار قوم صالح (عليه السلام) في العدالة، بعد أن قامت حضارتــهم على أسس اقتصادية كبيرة، كما وصفها القرآن الكريم، وما تحقّق في ظلها من مكاسب كبيرة، تبوؤا الأرض، وسكنوا القصور التي شيّدوها على السهول ونحتوها في الجبال، فما ينبغي مع هذا الخير وتلك الآلاء أن يسود الفساد، إذا استمر التوحيد وأخلاقياته متألقة وفاعلة.

إلا أن غياب التوحيد وأخلاقياته وأحكامه أدى إلى ظهور الاستكبار، والاستكبار مفهوم مرتبط بالسيادة الاقتصادية والعسكرية والسياسية لدولة ظالمة.

رفضَ الاستكبارُ منطقَ العدالة، فعقروا الناقة، متحدّين صالحًا أن يواجههم بموقف مضاد، فأخذهم العذاب.

*** شعيب والحقوق الاقتصادية:**

﴿ وَإِلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (87) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إذا لَخَاسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (91) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (92) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (93) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) ﴾ (الأعراف/85-96)

الخلل نفسه، الفساد وغياب التوازن، زائدًا بخس الناس أشياءهم.

محور الدعوة التوحيد مع الوفاء بالحقوق الاقتصادية كيلًا وميزانًا وقياسًا، إن بخس الناس أشياءهم أكبر بوابات الفساد.

الدعوة قائمة على أفعال تبني الكرامة (اذكروا..) استعراض للتاريخ حين كانوا قلة فكثرهم الله. (انظروا...) نظرة معرفة وتأمل في عاقبة المفسدين الذين سبقوكم (عاد وقوم نوح) (اصبروا ..) فعل الحكمة، بانتظار الحكم الحق غير المنحاز، حكم الله.

لم يطلب الاستكبار هنا حجة أو دليلًا، كما فعلها الأقوام السابقة، لأن المستكبرين لا يحاورون، إنما يفرضون سطوتهم، ولهذا أخذتهم الرجفة:﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين... ﴾، المقابلة الجمالية هنا بين الاستكبار بكل ما يمثله من علو وطغيان، وبين المآل الذي انتهى اليه جاثم في وحْل السكون.

٭قصة الرجلين وجنتيهما:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أكثر مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41)وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا(44) ﴾ (الكهف/32-44)

في سورة الكهف قصة الرجلين صاحبي بساتين العنب والنخيل والزرع والنهر الجميل، كلتا الجنتين مشروعان مثمران اقتصاديًا طاقتهما الإنتاجية كبيرة جدًا، (ولم تظلم منه شيئًا).

المنتِج الأول-قال لصاحبه وهو يحاوره ـ وهو حوار سلبي - أنا صاحب المال الأكثر، والنفر الأعز، (المال والأفراد) مقومات إنتاجية مهمة في أي نشاط اقتصادي، دخل مشروعه يتبخْتر غرورًا وعلوًا مفاخرًا بقدراته الإنتاجية التي زعم أنها قوته الاقتصادية التي لن تبيد أبدًا، ولقد اعتمد على قواه وإمكاناته المادية، التي لن تفنى ولذلك ليس هناك ساعة لبعث وقيام، تخلى هذا الأنموذج عن كل معاني شكر الله تعالى ورحمته معتزًا بقوته المادية.

في حين كان حوار الشخص الثاني معه وهو – الحوار الإيجابي-مختلفًا تمامًا. فهو رجل اقتصادي منطقي جدًا مؤمن، ابتدأ حواره برفض الكفر بالله والشرك به، والمفروض بدل أن تدخل جنتك مغرورًا، كان عليك دخولها من بوابة الشكر. (قلت ما شاء الله) فطاقتي الإنتاجية ليست كطاقتك (المال والأفراد)، إنها قليلة قياسًا بك، لكني مؤمن بالله لا أشرك به أحدًا، ومؤمن بأن الله قادر على زيادة طاقة مشروعي الإنتاجية، فتصبح جنتي خيرًا من جنتك ويرسل على جنتك ما يفقدها طاقاتـها الإنتاجية المال والأفراد والماء.

وسارت المقادير على وفق منطق اقتصاديات الله تعالى:

الإيمان يؤدي إلى زيادة الموارد الطبيعية وهذه تؤدي إلى زيادة الطاقة الإنتاجية، ثم زيادة الإنتاج فزيادة الرفاه الاقتصادي. والبعد الجمالي هنا في هذا التناظر الخلاق بين زيادة الإيمان، وزيادة الإنتاج.

الشرك يؤدي إلى قلة الموارد الاقتصادية، ونقص الموارد الطبيعية يؤدي إلى نقص الطاقة الإنتاجية ونقص الإنتاج، فالفقر والبؤس الاجتماعي.

في القصة جمال الموازنة بين زينة الحياة (المال والبنون)، وزينة الآخرة (الصالحات) وهذه الباقيات عند الله خير أمل وخير ثواب.

إن الجانب الاقتصادي في القصة يوضح (أن المبنى الهندسي لها ذكر بعدين مختلفين من أبعاد التملك، تجمعهما علاقة التضاد، وحينما يضع المتلقي اليد على هذا التوازن والتقابل بين موقفين مختلفين يعالج كل واحد منه موقفًا متميزًا كل التمايز عن الآخر، فسوف يتوصّل إلى مدى التخالف الذي تمثله هذه الشخصية السلبية مع محيطها ، ومدى المفارقة في موقف رجل بهرَته زينة الحياة الدنيا مع إنه لا يملك منها إلا مزرعة، مقارنة مع موقف شخصيات إيجابية لم تقعدها زينة الحياة كشخصية ذي القرنين الذي ملك الدنيا كلها شرقًا وغربًا [17].

***ذي القرنين وجماليات التكنولوجيا:**

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85) حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (87) وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إذا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإذا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي

حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) ﴾ (الكهف/83-99)

- رجل التمكين الإلهي، التمكين بالأسباب، وصل مغرب الشمس في عين حمئة (رمزية هائلة) لحركة الكون القابلة للإدراك وللحضور البشري في أبعد ما يتصور العقل. وجد قومًا بمواصفات خاصة يعلمها الله ولا يعلمها هو، خيرّه الله تعالى بين العذاب أو بين أن يتخذّ فيهم الحكم الحسن. كان قرار ذي القرنين أنه من ظلَم سيُعذّب، ثم يُرد إلى الله ليعذبه بطريقة أخرى، ومن آمن فله جزاءً الحسنى، وسيكشف له من أمره أحسنه. هذا نمط من الوجود الإنساني في مغرب الشمس.

- في مطلع الشمس وجد قومًا تطلع عليهم الشمس ولا يرون ظلًا.

- الحركة الكونية الثالثة، وصل منطقة فيها سدان، وجد عندهما قومًا لا يكادون يفقهون قولًا، أخبروه عن قوم مفسدين في الأرض، يريدون أن يحجبوهم بسد، قال: أعينوني أجعل بينكم وبينهم ردمًا (الردم/السد). هنا تبرز قدراته التقنية في بناء الردم، جمع زبر الحديد، وضعها بين السدين، وأشعل فيها النار التي تحتاج إلى نفخ القوم لتظل مشتعلة، ثم صبّ عليه (القِطر) ليكّون "كتلة" صلبة من الحديد والقطر، لا يمكن خرقها بأقوى أسلحة ذلك العصر فما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقبًا.

(اسطاعوا/استطاعوا). بعد جمالي في الحركة، حذفت التاء في اسطاعوا لارتباطها بسرعة اعتلاء السد، وبقيت في استطاعوا، لارتباطها بعملية ثقب السد المتأنية.

تمثلت رحمة الله تعالى في هذا الإنجاز التكنولوجي الهائل الذي أعجز العالم عن صعوده وثقبه (قدرة الإنسان) مقابل (قدرة الله تعالى) الذي سيجعله دكاء يوم يأتي وعده الحق. كل هذا لم يُفقد ذي القرنين توازنه وتماسكه الداخلي لأنه كان يحيى بنعمة شكر الله والإيمان الحق به.

***قارون: العلمانية والاستكبار المعاصر**

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللهَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهَّ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَّ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأكثر جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهَّ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهَّ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَّ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهَّ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) ﴾ (القصص/76-83)

- قارون تقني ماهر، أعطاه الله من الكنوز ما إن تعجز الرجال الأشداء عن حملها.

في حوار المواجهة بينه وبين قومه، بعد أن تأصّلت سمات (البغْي) فيه، قال له القوم لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين.

- ابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة، دون أن تنسى نصيبك من الدنيا.
- أحسن كما أحسن الله إليك.
- لا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين.

تظهر صورة جديدة من ملامح (الاستكبار)، و(الغرور) والتعالي.

- أعلن، إن ما بيديه من صنعه هو، آتاه على علم من عنده، (نسي أنه فضل الله ورزقه)، وهذا هو موقف الكبر.

أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد قوة وأكثر جمعًا ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون.

في مشهد استكباري.خرج على قومه بأرقى زينته ومظاهر قوته، وهذا هو موقف الإبــهار فيحدث شرخا في التكوين الاجتماعي، يفرز مجموعتين بقيمتين ثقافيتين وعقائديتين متناقضتين.

المجموعة الأولى، أو المجتمع الأول، الذين أدهشهم المشهد، فسلبهم إنسانيتهم، وهم المنبهرين السلبيين، قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم. (أهل الدنيا)

المجموعة الثانية، أو المجتمع الثاني، أهل العلم والإيمان أهل الجمال الخالد الواضح الرصين: قالوا ويلكم طيبات الله خير لمن آمن وعمل صالحًا، وهي جائزة الصبر، درب الحكمة.

- هذا الأنموذج الحر التقني العلماني الكافر الرافض لقدرة الله وعطائه المعتد بإمكاناته لم يتمكن من الحفاظ على كنوزه بكل قدراته العلمية والتقنية حين خسف الله به وبداره الأرض، لقد ألّــم السرد القرآني بهذه الشخصية وبدورها السلبي بعد أن شكل العمق المتمثل بموسى عليه السلام وأتباعه حيث مجرد ذكر اسم موسى يربط فكر المتلقي وذهنه بشخصية إيجابية استطاعت أن تغير واقعًا صعبًا بفضل علاقته المتينة بالله تعالى، وبالآخرين، بخلاف قارون الذي لم يحسن علاقته لا بذاته ولا بمحيطه[17].

- فعل الخسف، أعاد تكوين الوعي عند المجموعة الاولى (مجموعة الدنيا)، رأوا أن قارونًا لم يستطع فعل شيء لوقف هذا الخسف بكل ما عنده من علم. إنه لم يكن منتصرًا في أي موقف، لقد كان مهزوما من الداخل؛ لأن مقومات التوازن غير متحققة، إذ ليس بالمادة وحدها يحيا البشر.

- استعاد المعجبون به وعيهم أمام دهشة الخسف فجاءت جملة التعبير عن دهشتهم حالًا بـ (وي) التي عبرت عن جمال التلازم بين اقتصاد اللغة وهول الحدث.

⁕أصحاب الجنة/أنانية الملكية الخاصة

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّون(26)بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) ﴾ (القلم/17-36)

-الغنى والفقر، الحزن والسرور، الصحة والمرض، في جوهرها امتحانات إلهية.

-الاقتصاد الإلهي، اقتصاد شكر، الغني يشكر، على ما بيديه، والفقير يشكر على ما في يديه، الاثنان يأملون من شكرهم الزيادة.

- وهذه أبرز مقومات الاقتصاد الإلهي.

- وكلما نقل الغني من ماله إلى الآخرين/الفقراء، والمحتاجين، والمساكين، وذوي القربى، كانت نتيجة الامتحان ممتازة، وكلما بخل واستغنى، كانت الدرجة أقل.

- وصبر الفقير درب حكمته وغناه.

- ومن مقومات الاقتصاد الالهي (التسبيح)، فهو الطريق إلى زيادة الرزق.
- في قصة أصحاب الجنة، يتجلى الامتحان والشكر والصبر، ونقيضهم أصحاب الجنة، إخوة اشتهرت حدائقهم بكثرة الثمر والجمال..
- أعجبهم كثرة الثمر والزرع وما سيعود عليهم من مال.
- تحركت امراض الملكية الثاوية في أعماقهم.
- فدار حوار بينهم يكشف عن سطوة الملكية على عقولهم ونفوسهم.
- فقرروا أن يتوقفوا عن الإنفاق وشكر النعمة، إنــهم نماذج (قارونية).
- ناموا على مرض أحلامهم باحتكار الناتج لهم، والتوقف عن مشاركة الفقراء والمحتاجين بشطر منه، وهم نائمون-طاف عليهم طائف من الله. حوّل تلك الجنة إلى (صريم)بياس وجفاف مرعبين.
- وعندما توجهوا صباحًا إلى جنتهم. هالــهم ما رأوا.

ومثل مشهد الخسف بقارون، كان مشهد إحراق الجنة، أحدث ((صحوة وعي)) عند الإخوة، تأكد لديهم أنــهم ((ضالون)) بلا منازع، ومع الضلال، الحرمان.

إن المشهد يعكس خسارتين في لحظة واحدة، خسارة مادية/حرق الجنة. وخسارة روحية/الضلال.

الذي ظل محافظًا على موقفه السلبي الأخ الأوسط، فهو رفضَ منطلقاتهم الفكرية دون أن يرفض عملهم، فكانت عينه على الربح، والأخرى على الإيمان، غير أن عين الإيمان لم تر الحق صافيًا.

إلا أن موقفه أفادهم في العودة إلى الإيمان، عبر عملية (نقد ذاتي/يتلاومون).

اكتشفوا أنهم صاروا طغاة بذلك الموقف الرديء.

عادوا إلى الله حقًا، فقد علمتهم التجربة: أن الطغيان/ هو اعتداء على حق الآخر. والبخل/طريق للدمار لأنه خلل بميزان العدالة.

يرتكز البعد الجمالي للقصة على عنصر المفاجأة، إذ تتعلق مفاجأة المتلقي بالمفاجأة السياقية الحاصلة على الشخصيات، وقد يتوقف الذهول وخيبة التوقع على الشخصيات فقط، والمتلقي ينظر إلى الأحداث من خلال زاوية نظر محددة

من قبل السارد، كما في قصة أصحاب الجنة على وفق مبنى فني يعتمد على كسر أفق توقع الإخوة الثلاثة.

اعتمدت القصة على مفاجآت مشوقة وخيبات صارخة لأفق توقعات الشخصيات الثلاثة، فضلًا عن سخريتها بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله عزّ وجلّ وحكمته، وفيها حيوية في العرض حتى لكأن المتلقي يشهد القصة حية حين تقع أحداثها أمامه وتتوالى[16].

مصادر الكتاب

❊ القرآن الكريم

1. ابراهيم، زكريا، "مشكلة الفن" . (مكتبة مصر، د.ط – د.ت)
2. إبراهيم، زكريا، "مشكلة الفلسفة". (مكتبة مصر، د.ط- د.ت)
3. إبراهيم، زكريا، "مشكلة البنية". (مكتبة مصر، د.ط- د.ت)
4. إسلامية المعرفة، المبادئ، خطة العمل، الانجازات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1406هـ / 1986م.
5. اسماعيل، سيف الدين عبدالفتاح "مقدمة أساسية حول عملية بناء المفاهيم، ضمن كتاب (بناء المفاهيم) "، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1/ 27.
6. اسماعيل، صلاح(1998)، " توضيح المفاهيم ضرورة معرفية، ضمن كتاب بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، ص31.
7. آل سعيد، شاكر حسن، "الاصول الحضارية والجمالية للخط العربي"، دار الشؤون الثقافية، ص17 بغداد-العراق.
8. التيجاني، عبدالقادر(1997)، "التفسير التأويلي وعلم السياسة (دراسة في المفهوم القرآني والمتغير السياسي)"، مجلة إسلامية المعرفة، العدد العاشر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص: 58- 59 ، عمّان-الأردن.
9. جعفر، هشام "بناء المفهوم بين التقويض والتشغيل، ضمن كتاب (بناء المفاهيم)"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1 ، ص 158.
10. جوليا ، كريستيفا (1969)، "علم النص" – ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب.

11. جيته (1967)، " الديوان الشرقي للمؤلف الغربي"، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة – مصر.
12. جيرار ، جينيت (1985) ، "مدخل لجامع النص"، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية للنشر، بغداد ودار توبقال، المغرب.
13. الدغشي، احمد محمد حسين، "نظرية المعرفة في القرآن الكريم وتضميناتها التربوية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص 240، جامعة الخرطوم-السودان.
14. راغب، نصر محمد (1994)، "(الحضارة-الثقافة-المدنية) دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، ص9، عمان-الاردن.
15. سوريو، اتيان (1974)، "الجمالية عبر العصور "، ترجمة الدكتور ميشال عاصي، منشورات عويدات، بيروت -لبنان، ط 1.
16. سيد قطب(1997)،"في ظلال القرآن"، 6/3664، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/5.
17. الشهرزوري، يدكار لطيف(2010) "جماليات التلقي في السرد القرآني". دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، 1_دمشق، سوريا. ط/1.
18. العبد، عبدالحكيم "الجمال في القرآن الكريم مدخل وأطر-مفاهيم وتصرفات" الموقع www.Kotobarabia.com
19. عشتار، داؤد محمد (2005)، "الإشارة الجمالية في المثل القرآني". اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.
20. الفاروقي، إسماعيل (1981) "مقال: التوحيد والفن"، مجلة المسلم المعاصر، العدد 25، 139
21. الفاروقي، إسماعيل (1981) "مقال: نظرية الفن الإسلامي"، مجلة المسلم المعاصر، العدد 25، ص: 137-150.
22. قطب، محمد، "منهج النقد الإسلامي"، (د.ط – د.ت)، ص 141.

23. مطر، أميرة حلمي، "مقدمة في علم الجمال". دار النهضة العربية، (د.ط-د.ت)
24. الناقوري، إدريس (1986)، "قضية الإسلام والشعر"، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط/2، ص 28، العراق.
25. نصري، هاني يحيى(1998)،" الفكر والوعي والوهم والجمال والحرية "، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1.
26. النورسي، سعيد (1414 هـ -1994 م)، "رسالة الاقتصاد"، ترجمة احسان قاسم الصالحي، ط 1، مكتبة دار الحكمة، كركوك- العراق.

السيرة العلمية



الاسم الثلاثي واللقب: جاسم محمد شهاب الفارس.

مكان وتاريخ الولادة: الموصل 1952.

الشهادة:

- ماجستير في الاقتصاد الإسلامي ـ جامعة بغداد ـ كلية الإدارة والاقتصاد ـ 1989.
- دكتوراه في الاقتصاد الإسلامي ـ جامعة بغداد ـ كلية الإدارة والاقتصاد ـ 1995.

أطروحتا الماجستير والدكتوراه:

- الفكر الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط (أبو يوسف ـ ومحمد بن الحسن الشيباني) 1989م-كلية الإدارة والاقتصاد – جامعة بغداد
- الفكر الاقتصادي عند المتكلمين ـ أسسه ومضامينه ـ أطروحة الدكتوراه. 1995 م –كلية الإدارة والاقتصاد – جامعة بغداد.

أصدر عددًا من الكتب منها:

- حكمة العشق. نصوص شعرية، دار الحكمة لندن – 2014
- منهج البحث النقدي عند إسماعيل الفاروقي وأهميته الحضارية. دار ابن الأثير للنشر والتوزيع – جامعة الموصل، العراق، 2014
- الرأسمالية تنقد نفسها – دار مجدلاوي – 2012
- فاعلية العقل الاقتصادي الإسلامي مقاربة وتأصيل – دار مجدلاوي – 2010

- الاقتصاد الإسلامي – البعد المعرفي والقيمي – دار مجدلاوي – 2010
- الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي 1990م
- ومجموعة أخرى من الكتب المشتركة.
- نشر أكثر من 30 بحثًا في المجلات العراقية والعربية والعالمية.
- أشرف على 32 رسالة ماجستير و14 أطروحة دكتوراه.
- شارك في أكثر من 25 ندوة عراقية وعربية وعالمية.